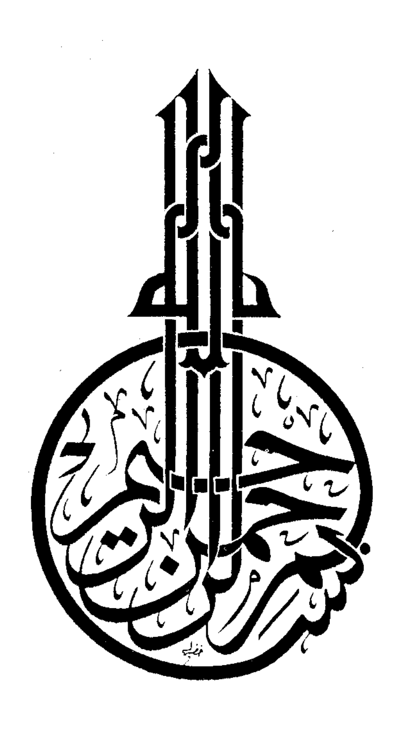
الشاعر حمد الحجي

تأليف

الأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن محمد بن حسين

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة، والسلام على سيدنا ونبينا محمد الذي قال: «**إن من الشِّعر لحكمةً، وإن من البَيَان لسِحْراً**»[1] وعلى آله وصحبه ــ والتابعين له بإحسان ــ وبعد:

فمنذ عشرين عاماً ألقيت محاضرة عن الشاعر حمد الحجي شفاه الله، ثم ألحقت تلك المحاضرة بمحاضرات عن الأدب في نجد نشرتها في كتابي (**الأدب الحديث في نجد**)، ومضت سبع عشرة سنة بعد نشر هذا الكتاب جهذا الكتاب جدّت فيها أمور جعلت إعادة نشره متطلبه إعادة النظر في بعض مما ورد فيه، وهذا قد يتطلب شيئاً من الأناة، وبخاصة أن إعادة النظر في عمل فرغت منه فيها شيء من الثِقل على النفس على الرغم من كونه من أوجب الواجبات، ولذا آثرت فصل بعض موضوعات هذا الكتاب من بعض ليسهل عليّ أمر المراجعة والتهذيب والحذف أو الإضافة وهي أمور لابد من أن يكون العمل فيها مجدياً ولاسيا وأن هذا الشاعر قد أُهمل أمر أدبه واكتنف شعره كثير من الملابسات التي أسهمت في كثافة الحجاب الذي يحول بينه وبين الدارسين.

---

(١) جمع الفوائد للإمام محمد بن سليمان الروداني المغربي، الجزء الثاني، كتاب الأداب، وروى الحديث الإمام البخاري وأبو داود.

لقد بلغني أن أحد الإخوان قد حصل على دفتر يشتمل على كثير من شعر الحجي فذهبت إليه وطلبت إعطائي صورة منه فوعدني بخير، ثم ذكر أن أخا الحجي قد استعاد الدفتر، فأين هو؟

إن من حق أدبنا، ومن حق الحجي علينا أن ندرس شعره.

لكن ليس من حقنا مقاضاة أولئك الذين يضنون به و يسترونه عنا.

وفي هذا الكتيب سأحاول إعادة الحديث عن حمد الحجي وشعره، راجياً من الله سبحانه وتعالى المثوبة، كما أرجو أن أوفق إلى الوصول إلى مايمكن الوصول إليه من فهم، ودراسة، وتحليل.

ثم إن هناك من القصائد مالم نقف عليه في دراستنا الأولى وقفة تجلو خصائصه وتبرز مزاياه، وتعمل على جلائه فكان من حق الشاعر علينا أن نعيد النظر في حديثنا عنه، وأن نحاول الحصول على مزيد من نصوص شعره لتعطينا القدرة على مد النَفَسِ في هذه الدراسة وفقنا الله إلى مافيه الخير.

وصلى الله على محمد.

أ د. محمد بن سعد بن محمد بن حسين

الشاعر حمد الحجي

حديثنا هذا حديث.... لا كالأحاديث لأنه عن شاعر.. لا كالشعراء.

إنه شاعر بَزَّ الفحول البُزَّل، وهو مازال ابن لبون.

لم أر له نظيراً في شعراء العربية سوى طرفة بن العبد [1]. على رغم الفوارق البيئية ــ الزمنية منها والاجتماعية ــ بين الشاعرين.

أما الشابي [2] فلم يبلغ شعره من الفحولة والتجويد هذا المبلغ الذي بلغه شعر شاعرنا هذا.

فمن هو؟ وأين ومتى وكيف نشأ؟ وما نوع ومبلغ ثقافته؟ وما العوامل التي صيرته هكذا؟ فحلاً يهز دوحة البلاغة، فتتهادى دررها مشرقة على بساط شاعريته، ليتنخَّل من فرائدها أغلى خرائده ولآلئه، فتجيء قصائد تُزْري بنفائس العقود، وتهزأ باللؤلؤ

---

(١) شاعر جاهلي من أرباب المعلقات مات مقتولٍ بسبب شعره سنة ٦٠ قبل الهجره ٥٦٤م.

(٢) أبوالقاسم الشاعر التونسي المتدفق بأصوات الثورة على الاستعمار والمناداة بالكفاح المرير ضد المستعمرين في كل مكان وقد تخرج في جامع الزيتونة ونال شهادة الحقوق سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م. وظل يكافح و ينافح حتى لقي ربه سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٤م، وديوانه (أغاني الحياة) مطبوع، وله (الخيال الشعري عند العرب).

المنضود، ... تَشِعُّ من أعطافها أنوار الأصالة، وتفوح من أردانها طيوب الفصاحة فتأسِرُ الألباب، وتنعش الكُتَّاب، وتؤنس الأغراب... في عالم الفكر المبهم الدُّروب... أمام إنسان العصر الحديث، عصر الاختراع والابتكار، عصر الذَّرة وغزو الفضاء، واكتناه مجاهل الوُجود.

تعريف بالشاعر

هو الشاعر حمد بن سعد بن محمد بن موسى الحجي، و يرجع نسبه إلى «هُذَيْل»، وهي إحدى القبائل: العربية المشهورة.

وقد ولد عام ١٣٥٧هـ ببلدة «مَرَات» من إقليم «الْوَشْم»... من أب عُرِفَ بقَرض الشعر العامى، أما أمه فقد توفيت وهو صغير، فحُرِمَ بذلك حنان الأم.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، فلقد كان أبوه فقيراً، كما كان يعيش عَزَباً زمناً طويلاً... لم يتزوج ثانيةً، الأمر الذي حمل أولاده على النِّفَارِ من البيت. فأما شاعرنا فقد وجد في كنف أخته... زوجة الشيخ محمد بن علي بن دُعَيْج موطئاً له وموئلا عَوَّضَهُ بعضاً مما فقد...، فواصل دراسته في المدرسة الابتدائية.... حتى نال شهادتها عام ١٣٧١هـ، وبعدها انتقل إلى مدينة «الرياض» حيث التحق بمعهد الرياض العلمى عام ١٣٧٢هـ، وواصل دراسته حتى نال شهادته من هذا المعهد عام ١٣٧٦هـ، ثم التحق بعد ذلك بكلية الشريعة «في الرياض» أيضاً عام ١٣٧٧هـ.

وعند بدء الدراسة في المرحلة الثالثة، وجَدَ منه المسئولون ميولاً كبيرة لعلوم اللغة العربية، واستعداداً أوفر في هذا المجال.

وكان فضيلة المغفور له الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم نائب رئيس الكليات والمعاهد العلمية يُقَدِّرُ موهبة الشاعر ويُجِلُّه... من أجل ذلك، ويعطف عليه، ومن هنا وافقت الرياسة العامة على إلحاقه حسب رغبته بالسنة الثالثة بكلية اللغة العربية، وكان الشاعر الموهوب يعيش بإحساسٍ مرهف، قابل للتفاعل مع ماتلقي به الحياة في طريقه، فأرهقه تعاقب الآلام، وتعاور المصائب، وتكاثر الرَّزايا فاعترته أمراض كان للوهم والوسوسة منها أوفر نصيب. فانقطعت به الطريق وتوقفت بذلك تلك الشاعرية الفَذَّةُ عن التدفق، فراع ذلك المخلصين، فسعى أُولُو العزم منهم إلى الأخذ بيده، فكان أن قاد سمو الأمِيرُ الشهم **سلمان بن عبدالعزيز** حملة في الصحف ــ الغرض منها جمع التبرعات لعلاجه ــ وأسهم فيها سموه بنصيب وافر، فأرسل إلى لبنان، واتجه إلى الشفاء إلا أن المرض عاوده بعد رجوعه، فأرسله أحد المحسنين إلى الكويت على حسابه، حيث بقي هناك عاماً تحسَّن بعده تحسناً يسيراً جداً، غير أن المرض كر عليه من جديد بعد رجوعه، ومازالت الأحوال تتقلب به حتى آل به الأمر إلى مستشفى «شهار» [1] بالطائف.

وبقيت صحته تتراوح بين التحسن والتدهور على الرغم من العناية التي كان يحاط بها من المسئولين.

ولقد أمر خادم الحرمين الشريفين **الملك فهد بن عبدالعزيز** حفظه

---

(١) شهار ــ في الأصل ــ مصدر شاهرة إذا استأجرة، وهو اسم موضع بمدينة الطائف قام عليه حي كبير، وفيه مستشفى الأمراض العقلية.

الله بـشراء منزل للشاعر وتأثيثه فتم ذلك على أكمل مايكون. وحين علم الشاعر بهذه المكرمة سُرَّ بها سروراً عظيماً وتحدث عنها أحاديث العقلاء.

وكـانـت أحـاديـث الحـجـي الـتـي يـدلـى بها للصحفيين الذين يـزورونـه تـزيـد قـضية فهم نفسية هذا الرجل تعقيداً لأنه في جُلها يـتـحـدث حـديـث الـعـاقل الواعي لما يُسأل عنه ويجيب عليه بتمام الوعي.

و يـبدو ــ والله أعلم ــ أن أسرة الرجل لم تسهم إسهاماً كافياً في محاولة كشف هذه الغُمة عنه، شفاه الله.

عصر الحجي

الحجي شاعر معاصر مازال على قيد الحياة بلا حياة.

قضى قبل أن يشتد به المرض قرابة أربعة وعشرين عاماً، عاشها مابين عامي ١٣٥٧هـ، ١٣٨١هـ، قضى منها خمس عشرة عاماً في بلدته، والباقي في مدينتي «الرياض، والطائف» ثم لبنان، ثم استقر به المقام بعد تجوال طويل أكثره بلا قصد بمستشفى «شهار» بالطائف (مستشفى الأمراض العقلية)، ثم المصحه النفسيه بمدينة الرياض.

لقد عاش الحجي فترة أولها في غاية الإجداب، وآخرها أخذ بنصيب من الإخصاب فلقد واكب مولده مولد المدارس في نجد وهي ــ وإن كانت على نطاق ضيق عند بدايتها ــ لم تلبث أن اتسعت اتساعاً هائلاً... حتى إنه لم يكد العقد السابع من هذا القرن ينقضي حتى انتشرت المدارس بمراحلها الابتدائية والمتوسطة والثانوية... في سائر أنحاء المملكة ــ ومنها نجد ــ ثم لحقت بذلك المرحلة الجامعية.

وقد صحب الحركة التعليمية والمدرسية ظهور الكثير من الوسائل التثقيفية السائرة إلى الأمام في طريق الترقي والنمو بالسرعة التي تقتضيها روح العصر وتتطلبها البلاد المتحفزة لبناء المستقبل الأفضل،

مترسمة في ذلك خُطا مليكها المتوثبة، المخلصة، المؤتمة بهدي المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام.

فالمكتبات التجارية «حوانيت الكتب» ثم المكتبات العامة، وكذا الصحف والمجلات، فالمطابع، ثم ماسوى ذلك من وسائل تثقيفية كلها إنما كان نشاطها الأول في تلك الفترة التي ولد شاعرنا فيها ونشأ، ولذلك لم يكن غريباً أن يتأثر بهذه الوسائل، وأن يناله كثير من تأثيرها إيجاباً وسلباً.

والحديث عن هذه الوسائل التثقيفية ـــ الخاصة منها والعامة ـــ حديث يتطلب البسط والإيضاح ولكم كان يسرنا ذلك لولا أن الحديث لغيرها [1].

غير أن هناك أمراً تجدر الإشارة إليه، وهو أن البعوث الخارجية واستقدام المدرسين من الخارج... ثم غشيان المطبوعات الحديثة من كتب وصحف ومجلات، ثم المذياع الذي غشى البيوت ثم التلفاز.

كل ذلك كان له الأثر البالغ في مجال التوعية، والتثقيف، وإزالة كابوس الجهل، الذي كان مطبقاً على هذه البلاد.

وما كان ذلك ليتم لولا جهود المغفور له **الملك عبدالعزيز، ثم أبنائه البررة** وفقهم الله وسدد خطاهم.

وإذا كان الشاعر الحجي قد انتقل من قريته إلى مدينة

---

(١) انظر في ذلك وما ماثله كتابنا (الأدب الحديث تاريخ ودراسات).

الرياض عام ١٣٧٢هـ بعدما نال الشهادة الابتدائية فإن تلك الفترة هي الفترة التي بدأت فيها الوسائل التثقيفية تغشي أفق «الرياض» فأقبل عليها طلاب العلم ورواد المعرفة ينهلون من معينها و يكرعون من مواردها، و يتسابقون في ذلك تسابق الأفراس الجياد في حلبة الميدان، كل يريد أن يكون له الحظ الأوفر، والقدح المَعَلَّى، وكان الحجي ــ شفاه الله ــ من أولئك الشباب الطامح إلى بلوغ ذرا المعرفة، واستجلاء معالم الفكر الإنساني، التالد منه والطريف، غير أنه امتاز من بينهم بالفهم العظيم.. فقد أصيب ــ إن صح هذا التعبير ــ بداء القراءة حتى اعتبر البعض ذلك أحد الأسباب التي شحنت صدره بالوساوس والأوهام.

عصر الحجي ــ إذن ــ عصر نقلة فجائية قفزت به من مستوى قَرِويٍّ محدود الثقافة والحضارة إلى حياة حضارية متمدينة يمزق فيها العلم ستر الجهل، ويملأ جنباتها ضياء المعرفة... حياةٍ تأخذ بشتى وسائل التقدم التي وصل إليها إنسان العصر الحديث في كافة مجالات حياته المادية وغير المادية، فانكشفت بها للبلاد جميع العوالم وربطتها بها شتى الروابط والصلات، فجارت غيرها في ذلك الميدان، وأرخت لنفسها وجهدها فيه العنان، فنالت في أقصر الأوقات مالم ينله الكثير إلا بعد طول كَدٍّ، وجهد، ومعاناة.

على أن مضاعفات مثل هذه النُّقلة أخطر، ووسائل إنجاحها أندر، لكن عندما تصح العزيمة تُذلل الصعاب.

شعــــره

حينما نـريـد النظر في شعر شاعرنا الحجي لانجد بين أيدينا منه إلا قـصـائـد مـعـدودة. يرجع الفضل في بقائها إلى الصحف المحلية فـبـعـض منهـا أسـعـفـنى به بعض الإخوان.. ممن يهمهم هذا الأمر، ومنهـا مـا وجـدتـه فـي بـعض قصاصات من الجرائد عندي، غير أن تـلـك الـقـصـائـد عـلـى قلة عددها كافية إجمالاً لأخذ صورة واضحة المـعـالم وافـيـة الـدلالـة عـلـى مـاكـان يتمتع به ــ شفاه الله ــ من شـاعرية جمعت إلى صفائها ونقائها: قوة الدفع، وغزارة الينبوع، مع عمقٍ في النظر، ودقة في الإحساس، ورهافة في الشعور.

خـذ مـثـلاً قـولـه من هـذه الـقـصيدة التي كأنما يترجم بها عن مـشـاعـره وإحساساته التي تصطرع داخل نفسه، وتحاول أن تجد لها مخـرجـاً فـتـصـطـدم بذلك الركام الهائل، من متناقضات الحياة التي صَبَغَت بصبغتها تلك أخلاق أهلها وطباعهم. إنها قصيدة نقلناها من صحيفة اليمامة [1] وفيها يقول بعنوان **«في زمرة السعداء»**.

---

(١) الصادرة في ١٣٧٧/٨/١٩هـ.

في زمرة السعداء

أأبْقَى عَلَى مَرِّ الجديدَيْنِ في جَوًى ... وَيَسْعَدُ أَقوَامُ وَهُمُ نُظَرَائِي[1]؟؟

أَلَستُ أَخَاهُمْ قَدْ نَظَرْنَا سَوِيَّةً ... فَكَيْفَ أَتَانِي في الحَيَاة شَقَائِي؟

أَرَى خَلْقَهِمِ مِثْلِي وَخَلْقِي مِثْلَهُم ... وَمَا قَصَّرَتْ بِي هِمَّتِي وَذَكَائِي

يَسِيرُون في دَرْبِ الْحَيَاةِ ضَوَاحِكاً ... عَلَى حِينِ دَمْعِي ابْتَلَّ مِنْهُ رِدَائِي

أَكَانَ لِسَانِي إذْ نَطَقْتُ مُلَعْثَماً ... وَكَانُوا إذَا نَاجَوْا مِنَ الْفُصَحَاء؟

وَهَلْ كُنْتُ إمَّا أَشْكَلَ الأَمْرُ عاجِزاً ... وَكَانُوا لَدَى الجُلَّى مِنَ الْحُكَمَاء؟

وَلَسْتُ فَقِيراً أَحْسَبُ المَال مُسْعِداً ... وَلَيْسُوا ـ إذَا فَتَّشْتُهُم ـ بِثَراءِ

وَهَلْ لَهُمُ جُودٌ بِمَا في أَكُفِّهِمْ ... وَأَنِّى مَدَى عُمْرِي مِنَ البُخَلاَء؟

وَهَلْ أَصْبَحُوا في حِينَ أَمْسَيْتُ مَانِعاً ... يَجُودُونَ بالنُّعْمَى عَلَى الفُقَرَاء؟

وَهَلْ كُلُّهُمْ أَصْحَابُ فَضْلٍ وَمِنَّةٍ ... وَكُنْتُ أَنَا المَفْضُولَ في الْفُضَلاء[2]؟

---

(١) الجديدان: الليل والنهار.

(٢) المفضول: من يقع عليه الفضل، والفاضل خير منه... قال الشنفرى الأزدى:

وما ذاك إلا بسطه عن تفضل ... عليهم وكان الأفضلُ المتفضل

وهَلْ ضَرَبُوا في الأرضِ شَرْقاً ومَغرِباً وَكُنْتُ مَلِلْتُ الْيَوْمَ طُولَ ثَوَائِي[1]؟

وهَلْ كُلُّهُمْ أَوْفَوْا بِكُلِّ عُهودِهِمْ وَمِنْ بَيْنِهِمْ قَدْ غَاضَ مَاء وَفَائِي[2]؟

بَلَى: أَخَذُوا يَسْتَبْشِرُونَ بِعَيْشِهِمْ سِوَايَ فَقَدْ عَايَنْتُ قُرْبَ بَلاَئِي

وَهُمْ نَظَرُوا فِي الْكَوْنِ نَظْرَةَ عَابِرٍ يَمُرُّ عَلَى الأَشْيَاء دُونَ عَنَاءِ

وَأَصْبَحْتُ فِي هَذِي الْحَيَاة مُفكِّراً فَجَانَبْتُ فِيهَا لَذَّتِي وَهَنَائِي[3]

وَمَنْ يُطِلِ التَّفْكِيرَ يَوْماً بِمَا أَرَى مِنَ النَّاسِ لَمْ يَرْتَحْ وَنَالَ جَزَائِي

وَمَنْ يَمْشِ فَوقَ الأرْضِ جِذْلاَنَ مُظْهِراً بَشَاشَتَهُ يَمْرُرْ بِكُلِّ رُوَاءِ

تُغَنِّي عَلَى الدَّوْحِ الْوَرِيقِ حَمَامَةٌ فَيَحْسَبُهُ الْمَحْزُونُ لَحْنَ بُكَاءِ[4]

وَتَبْكِي عَلَى الْغُصْنِ الرَّطِيبِ يَظُنُّهَا حَلِيفُ الْهَنَا تُشْجِي الْوَرَى بِغِنَاءِ

أَلاَ إِنَّمَا بِشْرُ الْحَيَاةِ تَفَاؤُلٌ تَفَاءَلْ تَعِشْ فِي زُمْرَةِ السُّعَدَاءِ

إن القارىء ليقف حائراً أمام هذه القصيدة التي نظمها شاب في العشرين من عمره وهو يقف على أبواب الكلية، وليس العجب آتٍ من قوة نسج القصيدة و براعة التعبير فيها وحسب، بل

---

(١) الضرب في الأرض: التنقل في أفيائها والثواء: الإقامة.

(٢) غاض: ذهب و بعد في القاع.

(٣) المعروف: هناءة... وهناء: قليلة، أو غير صحيحة.

(٤) الور يق: المورق.

ينبع ــ أيضاً ــ من هذا العمق الهائل في التفكير، والقدرة العجيبة على جمع الأشتات، ومقابلة الأحوال المختلفات، ثم ذلك التصوير الذي يصل إلى الغاية من التأثير حتى لكأنما الشاعر يتحدث فيها بلسان شيخ حكيم عجمته الحياة، وطال مراسه في تجربة الأمور.

ثم إن هذه القصيدة صورة دقيقة في تصويرها خفايا نفس الرجل ومسارب حسه، وشعوره، وهو يوازن بين واقعه، وواقع الآخرين من أترابه الذين يعيش بين ظهرانيهم، رهافة حس، ورقة شعور مفرطة ربما كانت من الأسباب التي أوجدت ذلك المصير المُظلم الكئيب الذي صار إليه الشاعر بعد نظم هذه القصيدة بثلاث سنين.

والناظر في شعره يجده في جلة يناجي عقل الإنسان، وتقل عنده مناجاة العاطفة، وماذاك إلا لصدور شعره عن نظرة عقلية تأملية، أصاب فيها أم اخطأ إلا أن هذا هو واقعه الذي صبغ به شعره.

ولعل هذا هو سر عدم قوة شعر الغزل عنده أو بعبارة أخرى مجيء شعر الغزل عنده في المرتبة الثانية من حيث القوة والجزالة والتصوير الجمالي الرفيع.

أحداث المجتمع في شعره

ولئن كان شعر شاعرنا يطفح بالتشاؤم، والتبرم بالحياة وأهلها، وماجبلوا عليه من تناقض، ومخالفات، إنه لم يكن انطوائياً يعيش بمعزل عن أحداث بلاده، وقومه، بل كان يبادر إلى الإشادة بأمجادها، والتغني بها بأسلوب المواطن الذي أذاب روحه في سبيل إخلاصه لبلاده وأمته.

استمع إليه يبتهج بافتتاح «جامعة الملك سعود» و يغرد في موكبها عام ١٣٧٧ هجرية إذ يقول:

في موكب العلم

فِي مَوْكِبِ الْبَعْثِ غَنِّ الشِّعْرَ تَغْرِيداً ... وَأَرْسِلِ اللَّحْنَ فِي دُنْيَاكَ تَرْدِيدَا

وَأَسْمِعِ الكَوْنَ أَنْغَاماً مُرَتَّلَةً ... وَامْنَحْ خَيَالَكَ أُفْقاً لَيْسَ مَحْدُودَا

فَقَدْ رَأَيْتَ بأَرْضِ الْعُرْبِ جَامِعَةً ... قَدْ شَيَّدُوهَا عَلَى الإِيمَانِ تَشْيِيداً

تُلَقِّنُ العِلْمَ تَبْغِي رَفْعَ مِشْعَلِهِ ... لِتَبْعَثَ الفِكْرَ إِيجَاداً وَتَجْدِيدَا

وَتَدْفَعُ الجِيلَ مُنْسَاقاً بِعَزْمَتِهِ ... كَيْمَا يُسَايِرَ رَكْبَ العِلْمِ مَجْدُودَا[١]

(١) مَجْدوداً: محظوظاً.

النـاسُ تُـضْحِى لَهُمْ مِصْبَاحَ دَاجِيَةٍ وَمَـنْـهَـلاً للـشَّـبَـابِ الْـحَـيِّ مَـوْرُودَا

هَـذِى الـشَّـوَاهِـدُ أنَّـا سَيْرُنَـا أمَـمٌ وَلَـمْ نَـعُـدْ نَـسْـتَـسِيـغُ الْـعِـلْـمَ تَـقْلِيدَا

شَـبَـابَ يَـعْـرُبَ هَـذِى فُرْصَـةٌ سَنَحَتْ لِـكَـىْ تُـوَاصِـلَ نَـحْـوَ الْـعِـلْـمِ مَـجْهُودَا

وَيَـوْمُكَ الـيَـوْمُ... لاَتَرْكَنْ إلَى كَسَلٍ وَأوْلِ مَـا رُفْـتَ إسْـرَاعـاً وَتَّـجْـوِيْـدَا

مَـا نَـامَ قَـوْمٌ وَشَـادُوا صَـرْحَ مَـمْـلَـكَـةٍ وَلاَ تَـوَانَـى فَـتَـى قَـدْ رَامَ تَـسْـوِيَـدا

وَالْـعِـلْـمُ يَـخْـلُـقُ لِـلأقْـطَـارِ نَهْضَتَهَا وَيُـورِثُ الْـفَـرْدَ تَـكْـرِيـمـاً وَتَـخْـلِـيـدَا

وتاريخ نظم هذه القصيدة هو تاريخ سابقتها ١٣٧٧ هجرية لكن الفرق بينهما بعيد جداً، فتلك موغلة في التشاؤم، وهذه نزّاعة إلى التفاؤل فيها أمل وبهجة وسرور، ودعوة إلى العمل والدأب في طريقه.

وما ذاك إلا لأن الشعر خطرات شعورية تخضع خضوعاً تاماً للأحوال النفسية التي تقع عاطفة الشاعر تحت تأثيرها عند نظم القصيدة، وهذا يفسر لنا كثيراً من جوانب حياة الشاعر، ويعين على تفسير أقواله وأعماله وتصرفاته.

ومثل قصيدته التي حيا بها جامعة الملك سعود عند افتتاحها، قصيدته التي حيا بها مطابع الرياض زمن افتتاحها ١٣٧٤هـ، وكان إذاك طالباً في المرحلة الثالثة بالمعهد العلمى بالرياض، وفي السادسة عشرة من عمره.

ولذا فإن هذه القصيدة ـ أعنى **تحية الطباعة** ـ تدل على نبوغ مبكرٍ جداً كما تدل على وعي وإدراك لقضايا المجتمع، وأحوال الحياة من حول الشاعر. ثم إن فيها دلالة قاطعة على أن الحجي ـ شفاه الله ـ كان كثير القراءة واسع الإطلاع في ذلك السن المبكر، ولعلك أيها القاريء تشاركنا هذا الرأي عندما تقرأ هذه القصيدة التي يقول فيها:

بَرَزَتْ فَكَانَتْ دَهْشَةُ الأبْصَارِ ... بِشُعَاعِهَا الْمُتَلألِىءِ الأنْوَارِ

عَامَانَ مَامَضَيَا عَلَى إيجَادِهَا ... حَتَّى اسْتَحَالَتْ مُنْيةُ النُّظَّارِ

تِلْكَ الطِّبَاعَةُ وَافِهَا يَاصَاحِبِى ... بِتَحِيَّةٍ نَفَّاحَةٍ معِطَارِ

حَيِّ الطِّبَاعَةَ في البِلاَدِ فَإنَّهَا ... رَمْزُ الفَتَاءِ بِنَهْرِهَا السيَّارِ

وَاطْلُعْ عَلَيْهَا في الرِّيَاضِ لِكَىْ تَرَىَ ... عَجَباً مِنَ الإبْدَاعِ وَالإكْبَارِ

أحْيَا الثَّقَافَةَ عِنْدَنَا مَاقَدَّمَتْ ... مِنْ خِدْمَةٍ لِلعِلْمِ والأفْكَارِ

لَوْ كَانَ «جُوتِنْبِرْجُ»(١) حَيًّا سَرَّهُ ... مَا لِلطِّبَاعَةِ مِنْ عِظَيمِ قَرَارِ

ثُمَ انْبَرَى يُثْنِى عَلَيْكُمْ فِتْيَةً ... قُمْتُمْ بِنَشْرِ رَوَائِعِ الأسْفَارِ

مَنْ كَانَ يَسْعَى بِالْجَمِيلِ فإنَّمَا ... عَزَمَاتُهُ مِثْلُ النُّجُومِ دَرَارِى

يَا أغْنِيَاءَ بِلاَدِنَا أبْصَرْتُمو ... أنَّ الفَضِيلَةَ كَسْبُ كُلِّ فَخَارِ

---

(١) مخترع الطباعة.

فإذَا رأيْتُمْ ذَا فَكَيْف تكَالُبٌ ... مِنْكُمْ عَلَى الدِّرْهَامِ والدِّينَارِ[1]

هيَّا أنفِقُوهاَ فِي ارْتفَاعِ بِلادِكُمْ ... فِي مَصْنَعٍ أوْ مَعْمَلٍ أوْ دَارِ[2]

حَتَّى تَرَوْا أنَّ الَّذِى انْفَقْتُموُ ... يَنْمُو نُمُوَّ النَّبْتِ والأشْجَارِ

فَبِذَلِكَ الْعَمَلِ الْمَجِيدِ تَيَقَّنُوا ... إلْحَاقَكُمْ بِخَوَالِدِ الآثَارِ[3]

مَا كانَ يَخْطُرُ بِالْفُؤادِ وَحَدْسِهِ ... أنَّ الأثِيرَ يَجِئُ بالأخْبَارِ[4]

أوْ أنَّ إنْساناً يَطِيرُ مُحَلِّقاً ... حتى يَصِيرُ مُشَارِكَ الأطْيَارِ

أوْ أنَّ يَنْبُوعَ الخضَارَةِ رُوحُهَا ... مَخْبُوءةٌ في الكَهْرَبَاء السَّارِى

لَكِنَّهُ الْعِلْمُ الَّذِى تَسْمُو بِهِ ... يَهْدِيهِمُو لِجَلائِلِ الآثَارِ[5]

وَيُمِيطُ عَنْ وَجْهِ الْخفِيِّ قِنَاعَهُ ... حَتَّى يُرَى كالصُّبْحَ في الإسْفَارِ

وَيُحَقِّقُ الأمَلَ البَعِيدَ مَرَامُهُ ... حَتَّى يَعُودَ حَقِيقَةً بِنَهَارِ

إنْ لَمْ نَكُنْ بِالْعِلْمِ نَشْغَلُ وَقْتَنَا ... وَحَيَاتَنَا مَا قِيمَةُ الأعْمَارِ[6]؟

---

(١) الدرهام: لغة في الدرهم، وهي صحيحة فصيحة.

(٢) همزة «أنفقوها» همزة قطع، وسهلت للضرورة.

(٣) تيقنوا: بمعنى تعلموا... أي: اعلموا وتحققوا، وخوالد الآثار... أي الآثار الخالدة.

(٤) خطر: من بابي ضرب ونصر، والأثير: المادة المجهولة التي يحملها الهواء، و ينتقل عبرها صوت الإذاعة المسموعة.

(٥) من عيوب القافية أن تتكرر قبل مضى سبعة أبيات، وكلمة «الآثار» هنا تقدمت قبل الأبيات الثلاثة السابقة على هذا البيت.

(٦) الصحيح في التعبير: «فما قيمة الأعمار؟» ولكنها ضرورة الشعر.

رحلته إلى لبنان

استشرفت نفس شاعرنا إلى الانطلاق، فبحثت عن بلاد لاتحدُّهُ فيها قيود اجتماعية، ولا تلاحقه فيها على دروب الحبيب، عين رقيب، فيسافر إلى لبنان ولكن... هل ينسيه وطنَهُ صَخَبُ الحياةِ هنالك ومافيها من مغريات ومسليات؟! هل ينسيه ذلك بلادَهُ «نجداً»؟؟ كلا، بل لقد زاده ذلك حنيناً إليها، وتعلُّقاً بها! فراح يتغنى باسمها، ويكرره... فَيُبْدِىء ويعيد، وكأنه يريد أن يُعَوِّضَ نفسه عن بعضٍ مما افتقدته في ساعتها، فيشدو باسم نجد في مثل قوله:

يَاحَبَّذَا فِـي رَوَابِى نَجْدِ أَسْمَاءُ (١) أَسْمَاءُ فِـي نَجْدَ مَغْنَاهَا وَمَرْتَعُهَا

ويعود إلى نجد فيفرح به إخوانه، ويُسَرُّ به محبُّوه، ولكن هل يطيب له بها المقام؟ وهل يستطيع أن ينسى لبنان؟

هاهو يحدِّثُكم بنفسه عن ذلك في هذه القصيدة... التي أنشأها تحت عنوان ذكرى لبنان.

---

(١) هذا البيت من قصيدة له في الحنين إلى نجد لم أوفق بعد للعثور عليها.

ذكرى لبنان[1]

النَّازِحُ الْعَانِي طَوَاهُ ضَنَاهُ فَبَكَا دِمَاءً حِينَ طَالَ نَوَاهُ[2]

وَجَفَا الْمَرَابِعَ إِذْ تَذَكَّرَ فِتْيَةً غُرًّا شَجَاهُمْ فِي الحَيَاةِ شَجَاهُ[3]

هُمْ رُفْقَتِي بِالشَّامِ لاَ أَنَا واجِدٌ بَعْدَ الْوُجُوهِ الزُّهْرِ مَنْ أَرْضَاهُ[4]

شُمُّ الأُنُوفِ كَأَنَّمَا أَخْلاَقُهُمْ نَشْرُ الْخُزَامَى قَدْ عَلاَهُ نَدَاهُ[5]

كَمْ لَيْلَةٍ حَمْرَاء فِي أَكْنَافِهِمْ كادَتْ تُعيدُ لِذِي المَشِيبِ صِبَاهُ[6]

قَاسَمْتُهُمْ مُتَعَ الحيَاةِ جَمِيعَهَا الكَأْسُ كَأْسٌ وَالشِّفَاهُ شِفَاهُ

وَسَرِيِّ قَوْمٍ ذُبْتُ فِيهِ مَوَدَّةً فَلَقِيتُهُ يَاحَبَّذَا لُقْيَاهُ[7]

---

(١) هذه القصيدة مناولة من بعض الإخوان.

(٢) العاني: الأسير، ويراد به ــ هنا ــ المقيد، والضنى: الألم، والنوى: البعد.

(٣) المرابع: الملاعب وأماكن اللهو، والشجى: الحزن.

(٤) الرفقة ــ بتثليث الراء: الأصحاب.

(٥) شم: جمع أشم، والشمم: هو الأنفة والإباء والتعالي على الصَّغائر أو الصَّغار، والخزامى: نبت طيب الرائحة.

(٦) الليلة الحمراء: ليلة اللهو والعبث، وحمرتها تنسب لفعل الكؤوس في النفوس، وتأثير الخمر في الدورة الدموية... فتعلو الوجوه حمرة كاذبة «لا تلبث أن تزول وتحول إلى ضعف وتراخ شديد.

(٧) السريّ: الشريف الكريم، وفعله من أبواب «دَعَا وَرَضِيَ وَكَرُمَ» سَرَاوَة وسَرًى وسَرْواً وسَرَاءً، ويجمع «سَرِيٌّ» على أسرياء، وسَرَوَاء، وسرِيُّ.

هُوَ زَامِرُ الْحَــيِّ الَّـذِى قَدْ حَدَّثُوا ... عَـنْـهُ وَقَـالُـوا: لاَيَـطِـيـبُ غِـنَاهُ

لَـمْ يَـخْنِ جَبْهَتَهُ لِغَيْرِ اللهِ إذْ ... حُـنِـيَتْ لأغْرَاضِ الْحَيَاةِ جِبَاهُ

سَارُوا وَسَارَ مَعَ اللَّيَالي فَاهْتَدَى ... بِـالنَّجْمِ تَخْـفِـقُ فِي سَماه رُؤَاهُ

لَوْ كانَ يَرْضَي بِالْمَدِيحِ مَدَحْتُهُ ... وَذْكَــرْتُــهُ لَــكِــنَّــهُ يَــأْبَــاهُ..

كُـلٌّ يُقَالَ: لَهُ شَبِيهٌ فِي الْعُلاَ ... فَـأَقُـولُ: هَـذَا مَـالَـهُ أَشْـبَـاهُ

خُـلُـقٌ إلَـى عِـلْـمٍ إلَـى وَطَـنِيَّةٍ ... هَـذَا الَّـذِي لَـمْ يَـجْتَـمِعْ لِسِوَاهُ

إيـهِ أَبَـا «مَـيٍّ» إلَـيْـكَ تَـحِـيَّـةً ... مِـنْ شَـاعِـرٍ قَـاسَـمْـتَـهُ بَـلْـوَاهُ

لَمْ أَنْسَ قُرْبَ الْبَـحْرِ مَجْلِسَنَا وَقَدْ ... نَـشِـرَ الظَّلاَمُ فَكُنْتَ أَنْتَ سَنَّاهُ

لُـبْـنَـانُ يَابَلَدَ الطَّبِيعَةِ وَالْهَوَى ... وَالـشِّـعْـرِ فـي أَدْنَـاهُ أَوْ أَقْـصَـاهُ

أَهْوَى الْجَدَاوِلَ وَالصُّخُورَ إذَا مَشَتْ ... عِـنْـدَ الأصِيلِ عَلَى الصُّخُورِ ـ مِيَاهُ

أَهْوَى الْحِسَانَ إذَا مَشَيْنَ تَدَافُعاً ... كالْبَانِ غَضّاً قَدْ عَلاَهُ صِبَاهُ[1]

يَـضْحَـكْنَ أَوْ يَغْمِزْنَ مَنْ لاَقَيْنَهُ ... يَاوَيْحَ قَلْبِى مِنْ لِحَاظِ صِبَاهُ[2]

إنِّي أَمُوتُ عَلَى مَصِيفٍ في رُبَا ... لُـبْـنَـانَ لاَرَاعَ الـزَّمَـانُ رُبَـاهُ

---

(١) الصبا ـ هنا:ـ صغر السن، والشباب، والمراد: رواؤه ولمعته.

(٢) الصبا ـ هنا ـ: الجهل والطيش والانحراف.

لَـكِـنَّنِى خَالِى الْوِفَاضِ وَمِثْلُهُ بَـلَـدٌ جَـدِيـبٌ لِلْـفَـقِـيـرِ مَـتَـاهُ

مَـا حَـلَّـهُ إلاَّ وجـيـه أوْ أخـو مَـالٍ وَمِـثْـلِـي قَـدْ يُـعَـارُ رِدَاهُ[1]

جَـنَّـاتُـهُ غَـرْقَى بِضَافِي حُسْنِهِ هَـرِمَ الـزَّمَـانُ وَحُـسْـنُـهُ أعْـيَـاهُ

أرْضٌ كَمَا وُصِفَ الْخُلُودُ لِعَابِدٍ يَـبِـسَـتْ لِـطُـولِ صَـلاَتِهِ قَـدَمَـاهُ

إنِّـى لأذْكُـرُ فِـيـهِ أيَّاماً خَـلَـتْ فَتَكَادُ تُـذْمِى خَافِقَىْ ذِكْرَاهُ[2]

ولعل للخطرات النفسية والخيالات الوهمية دخل في بعض أبيات هذه القصيدة والله أعلم.

(١) أخو مال: صاحب مال، «ورداه» مقصور من «رداؤه».

(٢) الخافقان: الليل والنهار.

أقدم قصيدة وأحدث قصيدة

وكما حرصت على أن أجمع كل ما أعثر عليه من شعر شاعرنا ــ الحجي ــ حرصت أيضاً على تبيُّن أقدم، وأحدث ماحصلت عليه، غير أن الحكم على هذه القصيدة أو تلك: بأنها أقدم أو أحدث ماقال: متعذر مالم نحصل على مادوَّنه هو، وذلك شبه متعذر الآن... غير أنه يمكننا أن نعطى حكماً تقريبياً على مافي أيدينا من نِتَاجه الوافر، وأقول: الوافر... لأن الرجل كان شاعراً مطبوعاً يكتب الشعر وكأنما يُملى عليه إملاء ــ كما حدثني بذلك بعض زملائه ومساكنوه.

قال الأستاذ حمد بن دُعَيْج:

في بعض الأحيان يكون الحجيّ بيننا ونحن منهمكون في الحديث فيتناول الورقة والقلم، وماهي إلا دقائق، حتى يخرج علينا من ذلك الصمت القصير بقصيدة تتجاوز خمسة عشر بيتاً كتبها. وكأنما تُملَى عليه إملاءً.

وشاعر هذه حاله لابد من أن يكون مكثراً.. لكن أين ذلك النتاج الوافر؟.

إذا لم يتم شفاؤه، أو نعثر على ديوانه الذي بلغنا خبره[1] لايمكننا الإجابة على هذا السؤال؟!

أما مافي أيدينا من شعره فإن أقدم قصيدة فيه هى تلك التي قالها في الإشادة بمطابع «الرياض الحديثة»... عند افتتاحها عام ١٣٧٤هـ، وقد تقدمت. أما أحدث قصيدة فيما عثرت عليه من شعرة: فهي القصيدة التي قالها إبَّان علاجه في لبنان، ونشرتها مجلة «الورود» اللبنانية، ونقلتها عنها صحيفة «القصيم» وهي بعنوان **«ثورة نفس» قال فيها:**

ثورة نفس

فِــي سُكُونِ اللَّيْلِ قُدْتُ الزَّوْرَقَا   قَاصِداً شَطْء رَجَائِى الشَّيِّقاَ[2]

مُبْحِراً نَحْوَ الغَدِ الْمجْهُولِ في   حُلكَةٍ لَمْ أجْلُ فِيهَا أفُقاَ

كَمْ يَثُورُ الْبَحْرُ حَوْلِى مُزْبِداً   لاَهِبَ الْغَضْنِ مَغِيظاً مُحْنَقَا[3]

حَمَلَتْ أمْوَاجُهُ مِنْ قاعِهِ   زَعَقَاتِ الذُّعْرِ مِمَّنْ غَرِقَا[4]

---

(١) انظر المقدمة.

(٢) الشطء هنا: شاطىء النهر، ومثله «الشط» بتضعيف الطاء.

(٣) الغَضْن: بالضاد المعجمة الساكنة، أو المتحركة ـ مع فتح الغين، وهو : كل تثن في ثوب أو جلد أو درع، والمراد: سطح الماء وتموجاته، ولاهب: أبيض ساطع... لكثرة الرغوة والزَّبَدِ... من تحرك الموج وهياج البحر.

(٤) زعقت: جمع زَعْقَة، وهي الصيحة، والفعل من باب «منع»، والذعر: الخوف.

رَبِّ ضَـلَّ الـعَـقْـلُ فِـي غَـيْـهَـبِـهِ فَارْحَـمِ اللَّهُـمَّ عَـقْلِي الـمرْهَقَا[1]

زَوْرَقِـي فَـوْقَ مِـيَـاهٍ عَـصَـفَـتْ بَـاتَ مَـجْـنُـونـاً وَبَـاتَـتْ زِنُـبَـقَـا

عِـشْـتُ بِالأَنْجُم مِنْ سَلْسَالِهَا أَعْرِفُ الضَّوْءَ وَأُطْفِي الْحَرَقَا[2]

ثُـمَّ مَـاتَـتْ فَـسَـمَـائِـي صَـخْـرَةٌ يَـبِـسَـتْ بَعْدَ كَرِيـمِ الْمُسْتَقَى

كـان حَـوْلـي دَوْرَقُ الـنُّـور فَـلَـمَّا سَجَى لَيْلِي افْتَقَدْتُ الدَّوْرَقَا[3]

كَانَ فِـي كَـأْسِي بَقَايَا صَحْوَةٍ أُغْرِقَتْ فِـي التُّـرْبِ فِيمَا أُهْرِقَا

يَـا إِلَـهِـي أَظْـلَـمَ الـكَـوْنُ فَـلَـمْ تَـرَ عَـيْـنٌ فِـي دُجَـاهُ أَلَـقَـا[4]

أَمَـلٌ يَـخْـبُـو وقَـلْـبٌ يَـرتَـمِـي فَـوْقَ أَشْـوَاقِ الـضَّـنَى مُنْسَحِقَا

وَمَـسَـاءٌ لَـيْـسَ فِـيـهِ نَـجْـمُـهُ وَصَـبَـاحٌ نَـبْـعُـهُ مَـا انْـدَفَـقَـا

ظُـلُـمَـاتُ الـيَـأْسِ مافِيـهَا سِوَى جَـمْـرَةٍ فِـيـهَـا فُـؤَادِي احْـتَـرَقَا

أَعْـشَـقُ الـشَّـمْـسَ فَـيَاوَيْـحَ فَتَى فِـي بِـلادٍ لِلـضُّـحَـى قَدْ عَـشِـقَـا

---

(١) الغيهب: بوزن جعفر: الظلمة.. كالغيهبَان.

(٢) السَّلسَال ــ كالسَّلْسَلِ ــ: الماء العذب، أو البارد، ومثلها: السُّلاسِلُ، والحرق بالتحريك:ــ النار أو لهبها، وأثر الاحتراق.

(٣) الدورق: الجَرَّةُ ذات العُرْوَة.

(٤) الدجى: جمع دُجْيَة، وهي الظلمة، والأَلَقُ: الالتماع، وأصله بسكون اللام، وحرك للضرورة.

سَوْفَ يَحْيَا فِـي صِرَاعٍ وَالْمُنَى وَالـرَّدَى عَـنْ دَرْبِـهِ مَـا افْـتَـرَقَـا

يَـالَـعَيْنِي مِنْ تَـصَارِيفَ النَّوَىٰ يَـالـرُوحِـي مِـنَ تَـبَارِيحَ الشَّـقَا

كَـفِّـنِـي يَـاشَـمْسُ مِنِّي هَيْكَلاً كَــفِّــنـيـهِ هَـيْـكَـلاً مُـخْـتَـرِقَـا

وَادْفِـنِـيـه جَـانِـبَ الـنَّـهْـرِ فَقَدْ يَـتَـلَقَّى الصُّبْحُ غُـصْنَا مُورِقَا

لأَيُـرِيـدُ الْعَيْشَ قَلْبِي وَهُوَ فِي قَـيْـدِه نَـخْـوَ الضِّيا ما انْطَلَقَا

إِيـهِ يَادُنْيَا أَغْبِسِي أَوْ فَابْسِمِي إِنَّ كَـاسـاً بِـالأَسَى قَدْ فَهِـقَا[1]

يَـا حَـيَاتِي مَاَ الَّذِي فِيكِ يُرَى يُـبْهِـجُ النَّـفْـسَ وَيُغْرِي بِالْبَـقَا؟

سَوْفَ أَطْوِي صَفْحَةَ الْعُمْرِ فَمَا أَسْـتَـطِـيعُ الـعَيْـشَ عَبْداً مُوْثَـقَـا

لاَ تَقُولي كَيْـفَ فَارَقْتَ الـمُنَى؟ كَيْـفَ حَـطَّـمْـتَ صِـبَـاكَ الرَّيِّـقَا؟

أَنَا أَدْرَى مِنْكِ بِالْعُقْبَى فَلِـــــــلأُفُقِ السَّامِي نَصَبْتُ الْمُرْتَقَىٰ

وَدِّعُــونِــي يَــارِفَــاقِـيَ واذْهَـبُـوا وَامْـضُـغُـوا الأَحْلاَمَ حَتَّـى الْمُلْتَقَى

سَـوفَ أَغْـفُـو يَـا نَـدَامَـايَ فَـإِنْ طَـلَـعَ الـفَـجْـرُ فَـحَـيُّوا المشْـرِقَـا

وَانْـفُـخُوا فِــي جَدَثِي مِنْ رُوحِهِ وَاغْـرِسُـوا فَـوْقَ ثَـرَايَ الـزَّنْـبَـقَـا[2]

---

(١) فهق الإناء — كَفرح — فَهْقاً، و يُحرِّكُ: امتلأ.

(٢) الجدث: القبر، والزنبق: وَرْدٌ معروف.

ومع اشتمال هذه القصيدة على تشاؤم موحش و يأسٍ موغلٍ بدا فيه الشاعر وكأنما قد انقطعت به أسباب الحياة فإن حبه لوطنه يظل حياً قوي النبضات ألم تر إلى قوله:

سَوفَ أَغْفُو يَا نَدَامَاىَ فَإنْ ... طَلَعَ الفَجْرُ فَحَيُّوا المشْرِقَا

وانْفُخُوا في جَدَثِي من رُوحِهِ ... وَاغْرِسُوا فَوْقَ ثَرَاىَ الزَّنْبَقَاَ

الحجي والمذاهب الحديثة

إن المذاهب الأدبية الحديثة لم تتبلور بعد في أدبنا، أو بعبارة أخرى: التقت فيه ينابيعُها، فتم بذلك الالتقاء ازدواج تلك المذاهب فمن الصعب ـ والحال هذه ـ الحكم على هذا الشاعر أو ذاك بمذهبٍ معين.

غير أن بعضها كالإبداعية كانت أبلغ تأثيراً من الأخرى كالرمزية، وذلك مايظهر جلياً في شعر شاعرنا الحجي... على أنه بلا منازع أعمقُهم تأملاً، وأقواهم قدرة على التسلُّل إلى أعماق النفس البشرية، وتلمس أحساساتها ومشاعرها: ثم إبراز تلكم المشاعر والأحساسات في لوحات شعرية عميقة التعبير، بارعة التصوير.. لولا مايعلوها من غبار التشاؤم والتبرُّم بالحياة وأبنائها.

ولعل ما أسلفناه عن شعره كاف لتكوين هذه الصورة، وتجليتها، فما الذي بقى علينا قوله؟

إن سؤالاً هاماً يعترض طريقنا ـ هو: مَنْ الشاعر الذي اقتفى الحجي طريقه؟ كلما قرأت شعر الحجي وجدتنى أفكر في شاعر من شعراء العصر الحديث هو أبو القاسم الشابي:

فهل يعني هذا أن الشاعر قد قرأ لهذا الشاعر وأعجب به؟

هذا مالا أعلمه.

غير أننا لو عقدنا موازنة سريعة بين الحجي والشابي لظهر لنا سرُّ ذلك واضحاً جلياً، وهذا ماسنحاول كشفه فيما يلي:

الحجي والشـــابي

لقد عاش الشابي ٢٦ عاماً مُلِئَتْ بالحيوية الأدبية والنتاج الشعري على ماكان يصارعه من آلام جسمانية.

كما عُرِف عنه في شعره تلك النظرة التشاؤمية والتبرم بالحياة والناس، وطلب النجاة منهم ومن شرور مخالطتهم.. باللجوء إلى الطبيعة والإرتماء بين أحضانها، لينعم بالحرية مع الطيور والأشجار، وقطعان الماشية، وبين الصخور، والكهوف، وفي أحضان الأودية وعلى هامات الجبال، يصغى لهمسات الأنسام، وحفيف الأغصان، وخرير الماء، وتغريد الأطيار.

ولذا جاء شعْرُه مشرق الديباجة ــ كالشمس، جميل الصورة ــ كالروض... يُحيط به أحياناً عتمة الليل، وتكاثف الضَّبَاب، وقد تدفقه الينابيعِ الثرة سلسالاً صافياً، فما هو إلا أن تَمسَّه لفحة سمومٍ خاطرةٍ تشدُّه لواقع بلاده المستعمرة حتى لا تكاد تسمع إلا هزيم الرعود، وزمجرة الأمواج، ودمدمة العواصف.

على أنه ــ مع ذلك كله ــ قريب التناول، سهل المأخذ، تعتريه اليسارة أحياناً كما تتخلله أخطاء كثيرة خاصة في القافية.

وقد أعتذر عنه في ذلك بأمورٍ ليس هذا مجال ذكرها.

أما الحجي فإن المرض النفسي قد داهمه ولم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره، فعطّلَ فيه كلَّ قدرة منتجة، وأعاق تلكم العبقرية المبكرة، والطاقة الشاعرية الهائلة، فَحَرَمَنَا بذلك من شاعرٍ لو سلم لكانت له شئون ولله الأمر من قبل ومن بعد، ولا رَادَّ لماَ قضاه وقَدَّره.

ولم يبق لنا إلا أن نرفع أكُفّ الضراعة إليه تبارك وتعالى بأن يعيد لنا شاعرنا، فنحن أحوج مانكون إليه ولأمثاله.

ومن أين لنا المِثْلُ وقد اكْتَنَفَنَا عصرٌ ينطبق على شعرائه قول إيليا أبي ماضي [1] [قَلَّ المجيدون وكُثرَ المتشاعرون. سُنَّة الطبيعة أن يتوالد البعوض بالملايين وألاَّ تلد الصقور إلاَّ عدداً نزرا، لم أجتمع بشاعرية ضاحكة في هذه الرحلة. بل وجدتُ الشعراء مصابين بأمراض النساء النفسانية. فهم كالنساء يغرُّهم الثناء وكالنساء يميلون إلى البكاء.

أما قرائحهم فجافة كالأرض المَوَات. تحتاج إلى سماد كثير، وتعب أكثر قبل أن تَخْضَرَّ وتُنبت شيئاً.

إما أنهم ينسلخون على رُفات حضارةٍ انطوت، وإما أنهم يتسلقون على أدب غريب سيصير رفاتاً.

---

(١) «أدبنا وأدباؤنا في المهجر» لجورج صيدح، الطبعة الثالثة ٩٢٠.

وإنك لوجمعت كل شعرائنا المُحْدَثين لم يُكَوِّنُوا شاعراً عالمياً واحداً].

وعندما نستعرض مافي أيدينا من نماذج شعر الحجي ـ على قلتها ـ يتضح لنا التِقَاوُهُ مع الشابى في كثير مما ذكرنا ومالم نذكر بعد.

فما أتفق فيه معه :

١ ـ صفاء الديباجة وتأجج العاطفة، وصدق التعبير.
٢ ـ النظرة المتشائمة.. المتبرمة بالحياة والناس.
٣ ـ الطموح ونشدان ماهو أفضل وأكمل.
٤ ـ قوة الدفع، وتلاحم الصور والمعاني، وأخذُ بعضها بِحُجَز بعض.
٥ ـ السِّنُّ والشاعرية المبكرة.

ويختلف عنه في أشياء أكثر من ذلك... منها:

أولاً : أحيط الشابي بعاطفة الأمومة، كما نَعِمَ بالرخاء واستقرار المعيشة. أما الحجّي فقد حُرِمَ ذلك كلَّه، فقد توفيت أُمُّه وهو صغير، وبقى أبوه عَزَبًا حتى نفر أولاده من البيت.

وزاد الطين بِلَّةً أن كان والده عاجزاً عن أن يُؤمِّن له ولبنيه الآخرين عيشة هانئة، فانعكست آثار ذلك كله على نفسية شاعرنا وأخلاقه وطباعه وتصرفاته... التي لو سلم منها لما أصيب بما أصيب به من أمراض نفسية.

ثانياً : أحيط الشابى ببيئة طَبيعيَّة خصبة، وبيئة اجتماعية متساهلة، أعفته من كثير من الضوابط الخُلُقِيَّة والدينية.

أما الحجي فقد حُرِمَ من الأولى، وسَلِمَ من الثانية.

ثالثاً : كان للشابي مركز اجتماعي، فرضه مركز أبيه... الذي كان من علماء تونس وقضاتها.

أما الحجي فابن رجل عادي لامركز له ولا مال.

رابعاً : وإذا كانت اليسارة والخطأ ـــ خاصةً في القافية ـــ قد تخلل شِعْرَ الشابي منها ماتخلله فإن شعر الحجى قد كُتِبَتْ له السلامة من ذلك كله.

خامساً : أن الحجي عندما برم بالحياة والناس لم يلجأ إلى الهرب ونشدان السعادة في معزل عن الناس، وإنما تمنى لو قَدَرُوا على فهمه، واستطاعوا معاشرته، ولما لم يكن في مقدورهم ذلك فقد اكتفى بالتحسر عليهم، والتضجر من معاملتهم وسوء تصرفهم معه، فتعاظمت الوحشة في نفسه، حتى أقفرت فأحسَّ بالغربة وهو في أهله، وبين ذويه.

سادساً : وكما وجد الشابي من الظروف البيئية والاجتماعية مساعداً له على تحقيق مأربه، فلقد وجد أيضاً في الأوساط الأدبية من المعجبين به من يُردد ذكره، ويشيد بعبقريته وشاعريته الفذَّة، فكتب فيه وفي شعره الكاتبون. وتغنَّى به المُنشدون، فكان لذلك

كله أبعد الأثر في الدفع به إلى الأمام كما أنه قد جمع ديوانه، وأعدَّهُ للطبع من قبل وفاته.

أما الحجي فلم يكن له من ذلك نصيب، بل أدهى من ذلك وأمَرُّ أنه وجد من يحسده وينفس عليه، ويستخف به وبنبوغه، ويتهمه بالهلوسة، والوسوسة، والجنون... الأمر الذي ضاعف العبء عليه، وزاد في إرهاقه، وقوّى ساعد قلقه، فازدادت الكثافة في اسوداد منظاره، فكانت حصيلة ذلك كله دفعه بسرعة إلى ذلك المصير السحيق... الذي آل إليه أمره.

إن الحديث عن شاعِرَيِ الشباب ــ الحجي والشابيِّ ــ كلما طال كلما كان ألذ وأحلى ولكنه يكون أطيب وأجلى لو قدمنا نصيَّن لهما... مما يظهر فيه التشابه أو التباين بينهما. فمن قصيدة للشابي بعنوان:

مناجاة عصفور(١)

يَا أَيُّهاَ الشَّادِي المُغَرِّدُ هَاهُنَا ... ثَمِلاً بِغِبْطَةِ قَلْبِهِ المَسْرُورِ

مُتَنَقِّلاً بَيْنَ الخَمَائِلِ تَالِياً ... وَحْيَ الرَّبِيعِ السَّاحِرِ المَسْحُورِ

غَرِّدْ فَفِي تِلْكَ السُّهُولِ زَنَابِقٌ ... تَرْنُو إِلَيْكَ بِنَاظِرٍ مَنْظُورِ

غَرِّدْ فَفِي قَلْبِي إِلَيْكَ مَوَدَّةٌ ... لَكِنْ مَوَدَّةُ طَائِرٍ مَأْسُورِ

(١) أغاني الحياة الطبعة الأولى ص٥٥.

هَجَرَتْهُ أسْرَابُ الحمَائِمِ وَانبَرَتْ   لِعَذَابِهِ جِنِّيَّةُ الدَّيْجُورِ[1]

غَرِّدْ وَلاَ تَرْهَبْ يَمِينى.. إنَّنِى   مِثْلُ الطيوُرِ بِمُهْجَتِى وَضمِيرِي

لَكِنْ لَقَدْ هَاضَ التُّرَابُ مَلاَمِحِى   فَلَبِثْتُ مِثْلَ الْبُلْبُلِ المأْسُورِ[2]

أشْدُو بِرَنَّاتِ النِّيَاحَةِ وَالأَسَى   مَشْبُوبَةً بِعَوَاطِفِي وَشُعُورِى

غَرِّدْ وَلاَ تَحْفِلْ بِقَلْبِي... إنَّهُ   كَالمِعْزَفِ المُتَحَطِّمِ المُهَجُورِ

رَتِّلْ عَلَى سَمْعَ الرَّبِيعِ نَشِيدَهُ   وَاصْدَحْ بِفَيْضِ فؤَادِكَ المَسْجُورِ[3]

وَانشُدْ أنَاشِيدَ الجَمَالِ فَإنَّهَا   رُوحُ الوُجُودِ وَسَلْوَةُ المَقْهُورِ[4]

أنَا طَائِرٌ مُتَغَرِّدٌ مُتَرَنِّمٌ   لَكِنْ بِصَوْتِ كَآبَتِى وَزَفِيرِى

يَهْتَاجُنِي صَوْتُ الطُّيُورِ لأنَّهُ   مُتَدَفِّقٌ بِحَرَارَةٍ وطُهُورِ

مَافِي وُجُودِ النَّاسِ من شَيءٍ بِهِ   يَرْضَى فُؤَادِي أوْ يُسَرُّ ضَمِيرِي

فَإذَا اسْتَمَعْتُ حَدِيثَهُمْ ألْفَيْتُهُ   غَثاً يَفِيضُ بِرِكَّةٍ وَفُتُورِ

---

(١) الديجور: الظلام الحالك، وجنيته: الشيطانة التي تخرج فيه... وهذا الكلام على العقائد العامة التي تقول بأن الجن يخرجون ليلا ليخيفوا الناس.

(٢) هاض: كسر وحطم، ولبثت: أقمت وبقيت.

(٣) المسجور: الملتهب المضطرم بالنار.

(٤) انْشُدْ: فعل أمر ــ من نَشَدَ الضَّالَّة ــ إذا طلبها، ويجوز أن تُضْبَط بكسر الشين من أنشد الضالة ــ إذا عَرَّفها أو استرشد عنها ــ وتكون الهمزة قد سُهِّلتْ للضرورة.

وَإِذَا حَضَرْتُ جُمُوعَهُمْ أَلْفَيْتُنِي مَا بَيْنَهُمْ كَالْبُلْبُلِ المَأسُورِ[1]

مُتَوَحِّداً بِعَوَاطِفِي وَمَشَاعِرِي وَخَوَاطِرِي وَكَآبَتِي وَسُرُورِي

يَنْتَابُنِي حَرَجُ الحَيَاةِ كَأَنَّنِي مِنْهُمْ بِوَهْدَةِ جَنْدَلٍ وَصُخُورِ

فَإِذَا سَكَتُّ تَضَجَّرُوا وَإِذَا نَطَقْـــتُ تَذَمَّرُوا مِنْ فِكْرَتِي وَشُعُورِي

آهٍ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ بَلَوْتُهُمْ فَقَلَوْتُهُمْ فِي وَحْشَتِي وَحُبُورِي

مَا مِنْهُمْ إِلاَّ خَبِيث غَادِرٌ مُتَرَبِّصٌ بِالنَّاسِ شَرَّ مَصِيرِ[2]

وَيَوَدُّ لَوْ مَلَكَ الوُجُودَ بِأَسْرِهِ وَرَمَى الوَرَى فِي جَاحِمٍ مَسْجُورِ[3]

لِيَبُلَّ غُلَّتَهُ الَّتِي لاَتَرْتَوِي وَيَكُدَّ نَهْمَةَ قَلْبِهِ المَفْغُورِ[4]

---

(١) إعادة كلمة «المأسور» في القافية بعد الأبيات الثمانية المتقدمة جائز قافية.

(٢) هذا ترديد لما قاله الشعراء من قبل، ولما أثبتته الحوادث ــ ومن ذلك قول الشاعر أبي فِرَاسٍ الْحَمْدَانِيّ:

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئاباً على أجسادهن ثياب

وقول الآخر:

عوى الذئب فأستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت إنسان فكدت أطير

(٣) الجاحم: المكان الشديد الحر، ومثله الجحيم، وتكرار كلمة «مسجور» قانوني... لأنه بعد ١١ بيتاً.

(٤) الغلة ــ كالغليل ــ: شَدة العطش، والنهمة ــ كالنُّهَم:ــ شدة الرغبة، والمفغور: المفتوح.

وَإِذَا دَخَلْتَ إِلَى الْبِلاَدِ فَإِنَّ أَفْـــــــــكَارِي تُرَفْرِفُ فِي سُفُوحِ «الطُّور»

حَـيْـثُ الـطَّـبِـيعَةُ حُلْوَةٌ فَتَّانَةٌ تَـخْـتَـالُ بَـيْـنَ تَـبَـرُّجٍ وَسُـفُـورِ

مَـاذَا أَوَدُّ مِـنَ الـمَـدِيـنَةِ وَهْيَ غَا رِقَـةٌ بِـمَـوَّارِ الـدَّمِ الـمَـهْدُورِ؟ (١)

مَـاذَا أَوَدُّ مِـنَ الـمَـدِينَةِ وَهْيَ لاَ تَـرْثِـي لِـصَوْتِ تَفَجُّعِ الَموْتُورِ؟

مَـاذَا أَوَدُّ مِـنَ الـمَـدِينَةِ وَهْيَ لاَ تَـعْـنُـو لِـغَـيْرِ الظَّالِمِ الشِّرِّيرِ؟

مَـاذَا أَوَدُّ مِـنَ المَدِينَةِ وَهْيَ مُرْ تَـادٌ لِـكُـلِّ دَعَـارَةٍ وَفُـجُـورِ؟

يَا أَيُّهَا الشَّادِي الْمُغَرِّدُ هَاهُنَا ثَـمِـلاً بِـغِـبْـطَـةِ قَلْبِهِ المَسْرُورِ

قَـبِّـلْ أَزَاهِـيـرَ الـرَّبِـيـعِ وَغَـنِّـهَا رَنَـمَ الـصَّـبَاحِ الضَّاحِكِ المَحْبُورِ (٢)

وَاشْرَبْ مِنَ النَّبْعِ الْجَمِيلِ الْمُلْتَوِي مَـابَـيْـنَ دَوْحِ صَـنَـوْبَـرٍ وَغَـدِيـرِ

وَاتْـرُكْ دُمُوعَ الْفَجْرِ فِي أَوْرَاقِهَا حَـتَّـى تَـرَشَّـفَهَا عَرُوسُ النُّورِ (٣)

فَـلَـرُبَّمَا كَـانَـتْ أَنِـيـنـاً صَـاعِداً فِـي اللَّـيْـلِ مِـنْ مُتَوَجِّعٍ مَقْهُورِ

ذَرَفَـتْـهُ أَجْـفَـانُ الـصَّـبَاحِ مَدَامِعاً الأَلَـقَـــــةً فِـي دَوْحَــةٍ وَزُهُـورِ

---

(١) المَوَّار: المضطرب المتموج، والمهدور، اسم مفعول من «هَدَرَهُ يَهْدُرُهُ» بمعنى: أبطله وألغاه، والفعل لازم ومتعد.

(٢) الرَّنَمُ ــ بالتحريك ــ: الصوت، والمحبور: المسرور.

(٣) ترشفها: فعل مضارع ــ أصله: تترشفها، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، والثلاثي من أبواب «نصر وضرب وسمع» ومعناه: تناول الماء بالشفتين، وعروس النور: الشمس.

من أعماق نفسي

وهـذه قـصيـدة للشاعر الحجي تبلغ أبياتها (٧٠) بيتاً حسب ما ذُكِر في صحيفة اليمامة [١].

وهـذه القصيدة التى نحن بصددها الآن أطول ماعثرت عليه من شـعـر والجـميـل منهـا أنك تقرؤها حتى آخرها فلا تحسُّ فيها كلمة قـلـقة أو قافية مضطربة فكل كلمة ـ قافية كانت أو غير قافية ـ قـد استـقـرت فـي مكانها هادئة مطمئنة. شأنها في ذلك شأن جميع شعره.. قصاره وطواله في ذلك سواء.

لقد وضع الشاعر لهذه القصيدة عنواناً عاماً، ثم قَسَّمهَا إلى ستة **أقسام** جعـل لـكـل قسم منها عنواناً خاصاً، وعنوانها «من أعماق نفسي».

وهو العنوان الذي اختاره الشاعر لمطولته.

والحق أنـك تحـس مع كـل بـيـت أنه خرج من أعماق نفس الشـاعـر... لـيـستقر في أعماق نفسك، فجميعها من الأعماق إلى الأعماق.

---

(١) العدد ١٦٥ لعام ١٣٧٨هـ.

١ ــ خلف المنظار الأسود :

هذا هو عنوان المقطع الأول من قصيدة «الأعماق» وقد بدأه بمطلع حشد فيه كل معنى للجمال متجلياً في المنظر الخلاب، غير أن النفس المتشائمة تأبى على الشاعر أن ينعم بذلكم المنظر، فتعرض أمامه لوحة المصير المظلم الرهيب، ليرى الجمال وقد طُوِيَ في أكفانه... بعدما شمله البِلَى.

وَإنْ فَرَّحَتْهُ الحياة بزورة الأحباب... دفعت تلكم النفس الشقية أمامه صورة الفراق الطويل.

وإن جمعه مع الأخِلاَّء مجلس طاب فيه الحديث والسهر... صرفته عن طيب الحديث وأنسته فتون الشباب، وصبَّت في أذنه أصوات تحطيم الأكواب، وأرته النَّدامى وقد عصفت بهم كف المنون فصاروا حُطاماً في حزمة حاطب، ثم تركته من بينهم باكياً، يخاله الصِّحَابُ يبكي سروراً، وأين مِنُه السرور؟؟

والشاعر دائماً يحس بهول ذلك و يعجب منه، ولكن هذا هو واقعه... يصحب الحياة في عناء و يتجمل للشقاء المر ير متصابياً. فالنأخذ مثلاً هذا المقطع:

إنْ نَظَرْتُ الْجمَالَ غَضّاً طَرِيّاً　　يَتَجلّى فِي المَنْظَرِ الْخَلاَّبِ

لاَحَ لِى أَسْوَدُ المَصِيرِ ــ كَمُسْوَدِّ اللَّيَالِى ــ مُكَشَّرَ الأَنْيَابِ

فَرَأَيْتُ الجَمَالَ يُطْوى بِأَكْفَا ... نِ وَيَبْلَى مُمَزَّقَ الأَسْلاَبِ

وَإِذَا مَا الحَيَاةُ قَلْبِيَ يَوْماً ... فَرَّحَتْهُ بِزَوْرَةِ الأَحْبَابِ

أَيْقَنَتْ نَفْسِيَ الفِرَاقَ طَوِيلاً ... وَرَأَيْتُ الوِصَالَ مِثْلَ السَّرَابِ

وَإِذَا مَا الكُئُوسُ صُفَّتْ أَمَامِى ... يَتَرَاقَصْنَ مِنْ مُصَفَّى الشَّرَابِ

وَاحْتَسَاهَا قَوْمٌ وَغَنَّى المُغَنِّى ... بِلُحُونٍ تُطِيحُ بِالأَلْبَابِ

صِرْتُ وَخدِى البَاكِى يَظُنُّ بِأَنَّ الدَّمْعَ ... دَمْعُ السُّرُورِ لاَ الأَوْصَابِ

وَاجْتَنَبْتُ الطِّلاَ وَلَمْ أَسمع اللَّحْـ ... ـنَ ولَمْ أَدْرِ عَنْ فُتُونِ الشَّبَابِ(١)

وتَنَاهَى لِمِسْمَعى صَوْتُ كَفٍ ... عَصَفَتْ بِالشَّرَابِ وَالأَكْوَابِ

وَمَحَتْ آيَةَ السُّرُور وَأَبْقَتْ ... حَزَناً ـ حَلَّ ـ أَسْوَدَ الجِلْبَابِ

وَتَراءى لِيَ النَّدامَى وَقَدْ صَا ... رُوا حُطَاماً فِي حُزْمَةِ الحَطَّابِ

هَكَذَا كُنْتُ فِي حَيَاتِى مُجَاباً ... يَالِقَلْبِى مِنْ هَوْلِ هَذَا العُجَابِ

أَلْحَظُ القَاتِمَ المَرِيرَ مِنَ العَيْـ ... ـشِ وَأَبْكِى عَلَى الضِّيَاءِ الخَابِى(٢)

وَإِذَا لاَحَ لِيَ البَهَاءُ وَضِيئاً ... قُلْتُ: يَادَهْرُ لَيْسَ ذَا مِنْ حِسَابِى

وَإِذَا أَعْجَبَ الأَنَامُ بِشَئٍ ... بِتُّ مِنْهُ فِي مَوْقِفِ المُرْتَابِ

---

(١) الطلا:ـ بكسر أوله ـ: الخمر.

(٢) القاتم: الأسود المعتم.

هَكَذَا أَصْحَبُ الْحَيَاةَ.. فُؤَادِي　　فِي عَنَاء وَلِلشَّقَا.. ذُو تَصَبَابِي

لاَ أَرَى الْبَرْقَ في السَّحَابِ ضَحُوكاً　　وَبِأُذْنِي بُكَاءُ رَعْدِ السَّحَابِ

أَتْرُكُ الزَّهْرَ فِي الرَّوَابِي وَأَرْنُو　　نَحْوَ جَاثِي الصُّخُورِ تَحْتَ الرَّوَابِي

إِنْ تَغَنَّتْ حَمَائِمٌ مِلْتُ عَنْهَا..　　ثُمَّ أَرْهَفْتُ مِسْمَعِي لِلْغُرَابِ

لاَ أَرَى حُمْرَةَ الوُرُودِ وَيُدْمِي　　شَوْكُهَا أَنْمُلِي كَبَعْضِ الْحِرَابِ(١)

لاَ أَرَى فِي الْهِضَابِ إِلاَّ وُحُوشاً　　أَيْنَ مِنِّي مَا يَزْدَهِي فِي الْهِضَابِ؟

٢ ــ طموح وعذاب :

ويبلغ الإجهاد بالشاعر مبلغه فيزيح لك الستار عن نفسه في هذا المقطع الذي لن أعلق عليه إلا بأنه صورة صادقة لنفسه، جَلَّى فيها خبايا زواياها فخذوا مايقوله فيه:

وَاشْتِيَاقِي عَلَى الدَّوَامِ لِكُلِّ خَفِيٍّ مُجَنَّحٍ مُنْسَابِ

فَإِذَا مَا اسْتَبَانَ وَجْهٌ لأَمْرٍ　　رُحْتُ أَرْنُو نَحْوَ الْمَعَانِي الْغِرَابِ(٢)

لَوْ تَرَانِي وَقَدْ طَحَا بِي فِكْرِي　　وَأَطَارَتْ مِنِّي الشُّؤُونُ صَوَابِي

---

(١) (الورود) ليست عربيه لأن «الورد» اسم جنس جمعي يفرق بينه وبين واحده بالتاء، ولكن الكتاب والشعراء يستعملون الأخطاء.. دون رجوع لمصادر اللغة، وليته قال: «الزهور» بدل «الورود».

(٢) الغراب ــ بكسر الغين ــ جمع «غريب» ككرام... جمع «كريم».

لَـتَـوَهَّـمْـتَـنِـى بَـرِيـئاً مِنْ اللُّـــ   ـــبِّ ضَعِيفاً مُحَطَّمَ الأعْصَابِ

ثُـمَّ لَمْ تَدْرِ أَنَّنِى فِي سَماء الْـــ   ـــفِـكْـرِ أَحْـيَـا كَـعَـابِـدٍ أَوَّابِ

هَكَذَا عِيشَتِي.. رَحِيلٌ مَعَ الْفِكْـ   ـــرِ بَـعِـيـدٌ أَوْ نَظْرَةٌ في كِتَـابِ

أَوْ بَـقـاَءٌ مَـعَ الـشَّـقَـاءِ أُنَـادِيـــ   ـــهِ بِـأَزْهَـى الأَسْمَاءِ وَالأَلْقَابِ

وَإِذَا مَـا سَـأَلْـتَـنِـى: لِـمَ هَـذَا؟   فَـسُـكُـوتِـى عَـنِ الْجَوابِ جَوَابِى

لَسْتَ أَدْرِى لِمَ الدُّنَا حَمَّلَتْني   مَـا أَرَى الْغَيْـرُ مِنْهُ خِلْوَ الْوِطَابِ؟

أَلأَنِّـى قَـدْ نِـلْـتُ بَـعْـض نَعِيَم   تُـلِـيَـتْ كَـأْسُهُ بِأَقْدَاحِ صَابِ؟

أَمْ لِأَنِّى أُسَرِّحُ الفِكْرَ فِي الْكَوْ   نِ وفِـي الْخَلْقِ في ذُرَا مِحْرَابى؟

أَمْ لِأَنَّ الـدَّهْـرَ الْغَدُورَ قَدِ اجْتَّا   حَ بُـرُوجاً شَيَّدْتُهَا عَنْ رِغَابى؟

أَمْ لِأَنَّ الـجَـمَـالَ يُـصْمِى فُؤَادِى   بِـسِـهَـامِ الْـعُـيُـونِ والأَهْـدَابِ؟

أَمْ لِأَنَّ الـحَـبِـيـبَ قَـدْ فَرَّ عَنَّى   أَمْ لِأَنِّـى مِـنْ جُـمْـلَـةِ الْعُزَّاب؟

أَمْ لِأَنِّـى أَرَى الأَنَـامَ بِـأَجْـسَـا   مٍ تَـوَارَتْ فـيـهَـا نُفُوسُ الذِّئَاب[1]؟

بَـيْـنَ نَـذْلٍ وَخَـائِـنٍ وَعَـدُوٍ   وَحَـسُـودٍ وصَاحِبٍ ذِى كِذَّابِ[2]

---

(١) سبقه على هذا المعنى أبو فراس الحمداني في بيته:

وقـد صـار هـذا الـنـاس إلا أقـلـهـم   ذئـابـاً عـلـى أجـسـادهـن ثـيـاب

(٢) الكذاب : الكذب.

لَسْتُ أدْرِي سِرَّ التَّعَاسَةِ إلاَّ أنَّنِي تُهْتُ فِـي دُجَى سِرْدَابِي

رَبِّ تَاهَتْ سَفِينَتِي في ثَنَايَا الْـ يَمِّ فَارْتَعَتُ مِنْ رُؤى الأكْرَابِ[1]

يَا إلَهِي إلَيْكَ أشْكُو انْقِبَاضِي وَاعْتِزَالِي وَخَلْوَتِي وَانْتِحَابِي

تَقْرَعُ الحَادِثَاتُ بَابِي وَلَمْ أبْصِرْ سُرُوراً - يَوْماً - يَمُرُّ بِبَابِي

٣ ـ الناس والحزين :

وفي هذا المقطع الثالث يزيد الشاعر صورة نفسه وضوحاً... إلا أن أجدر مافيه بالملاحظة ـ وكله جدير بها:ـ هذا التساؤل الذي يُحَمِّلُ الناس فيه مسئولية ماحلَّ به، لأنهم لم يرفقوا به حين أمسى في عَنَاءٍ، وأمسى الدهر خِدْنَ انقلابه... كأنما تلقوا من الدهر عهوداً أنه لن يصيبهم ما أصابه:

مَالَقِيتُ الأنَامَ إلاَّ رَأَوْا مِنِّي ابْتِسَاماً وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَابِي؟

أظْهِرُ الإنْشِرَاحَ لِلنَّاس حَتَّى يَتَمَنَّوْنَ أنَّهُمْ فِي ثِيَابِي

لَوْ دَرَوْا أنَّنِي شَقِيٌّ حَزِينٌ ضَاقَ فِي عَينْهِ فَسِيحُ الرِّحَابِ

لَتَنَاءَوْا عَنِّي وَلَمْ يَنْظُرُونِي ثُمَّ زَادُوا نُفُورَهُمْ بِاغْتِيَابِي

فَكَأنِّي آتِي بِأعْظَمِ جُرْمٍ لَوْ تَبَدَّتْ تَعَاسَتِي لِلصِّحَابِ

هَكَذَا النَّاسُ يَطْلُبُونَ الْمنَايَا لِلَّذِي بَيْنَهُمْ جَلِيلُ الْمُصَابِ

(١) الأكراب: الكروب والهموم.

لِمَ لَمْ يَرْفُقُو بِى حِينَ أُمْسِى فِي عَنَاءٍ وَالدَّهْرُ خِدْنُ انْقِلاَبِ؟
هَلْ تَلَقَّوْا مِنَ الزَّمَانِ عُهُوداً أَنَّهُمْ مِنْ صُرُوفِهِ فِي اجْتِنَابِ؟
أَمْ تَعَامَوْا عَنِ الْحَقِيقَةِ حَتَّى جَهِلُوا أَنَّ عَوْدَهُمْ للتُّرَابِ
سَيَئُوبُونَ لِلتُّرابِ كَمَا قَدْ خُلِقُوا مِنْهُ بِئْسَ ذَا مِنْ مَآبِ؟[1]

٤ ــ أمــانــي :

وفي هذا المقطع ــ وهو الرابع ــ تتجلى أسمى صور الإنسانية في نكران الشاعر لذاته، وتمنيه لو استطاع إذابتها على دروب الإنسانية... لتسعدُ، فيسعدُّ هو بذلك، ولكن هل يمكنه ذلك؟:

كَمْ تَمَنَّيْتُ أَنَّنِى بَسْمَةٌ فِي خَاطِرِ الْبَائِسِ الْقَنُوطِ الْكَابِى
أَوْ مَنَامٌ يَمْحُو سُهَادَ الأَيَامَى وَالْيَتَامَى وَالمبْتَلَى بِاكْتِئَابِ[2]
أَوْ ضِيَاءٌ أُنِيرُ لِلشَّعْبِ سُبْلَ الْـ ـخَيْرِ يَدْعُو إِلَى ارْتِكَابِ الصِّعَابِ
لِبِنَاءِ الأَمْجَادِ تَسْمُو وَتُودِى بِالْخُرَافَاتِ وَالأَذَى وَالْعَابِ[3]
لِدُخُولِ الْحَيَاةِ مِنْ بَابِهَا الْفِضْـ ـضِيِّ نَحْوَ الآمَالِ وَالآرَابِ[4]

---

(١) في مثل هذا المعنى جاء قول الشاعر العباسي:
خلقتَ من التراب فصرتَ حيا وعُلِّمْتَ الفصيحَ من الخطاب
وعدتَ إلى التراب فصرتَ فيه كأنك ماخرجتَ من الترابِ

(٢) السهاد: الأرق وعدم النوم، والأيامى جمع «أَيِّم» وهى التي لم تتزوج.

(٣) تودى: تذهب وتهلك، والعاب: العيب، ومثله: الذَّامُ.. كَالذَّمِّ.

(٤) الآراب ــ بالراء ــ: جمع أَرَب، وهو الحاجة.

لاِنْقِضَاضِ الْحَقِّ الصَّرِيح عَلَى الْبَا طِلِ يَهْوِى مِثْلَ انْقِضَاضِ الشِّهَابِ

كَىْ نَرَى الشَّعْبَ بَيْنَ غَازٍ دَؤُوبٍ أَوْ مُعَنّى بِالْفِكْرِ وَالآدَاب

لَيْتَ.. لَكِنْ: لَيْتَ لَمْ تَبْقَ إلاَّ نَغَماً ظَلَّ وَاهِيَ الأَسْبَابِ

٥ ــ لـــو!! :

ما الذي سيفعلُهُ.. لو استطاع؟:

لَوْ مَلَكْتُ الْقِوَى لَرُحْتُ بَعِيداً وَتَسَامَيْتُ فِي الشُّعَاعِ الْمُذَابِ

أَوْ تَوَجَّهْتُ نَحْوَ خَالِقِي الأعْـ ـظَمِ أَوْ ذُبْتُ فِي كَثِيفِ الضَّبَابِ

أَوْ غَدَوْتُ الْحَقْلَ الْجَمِيلَ تَبَدَّى دَافِقَ النُّورِ نَاضِرَ الأَعْشَابِ

أَوْ صَحِبْتُ النَّجْمَ اللَّمُوعَ جَلَتْهُ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ سَاطِعاً في اضْطِرَابِ (١)

لَوْ مَلَكْتُ الْقُوَى لَحَقَّقْتُ آمَا لِي.. لأَزْجَيْتُ نَحْوَهُنَّ رِكابي (٢)

٦ ــ إنابة :

ولما كان الشاعر قد مَلَّ تجواله في تلك المتاهات الفكرية.. التي راعه مالقى فيها من عذاب، فإنه ــ وهو في طريقه إلى مداواة جروحه بالأوبة والرجوع ــ يضرع إلى البارى.. جلّت

(١) اللموع: وزن قياسي من صيغ المبالغة، ولكن لم أعثر على استعماله في كتب اللغة أو الأدب، ويبدو أنه استعمال حديث!!.

(٢) أزجى ــ كزَجّى وزَجَّى:ــ ساق ودفع ولعلها كانت: «وأزجين».

عظمته.. أن يتوب عليه، و يساعده فبدونه ـ تبارك وتعالى ـ لن يستطيع الإياب:

رَبِّ آمَنْتُ بِالْحَقِيقَة فَاجْنُبْـ ـنِى مَتَاهَاتِ أَوْبَتِي لِلْعَذَابِ

رَبِّ إِنِّي أَدْرَكْتُ حَقَّكَ فَلْتُشْـ ـرِقْ بِنَفْسِى نُوراً يُضِىءُ جنَابى

هَأَنَا قَدْ مَلِلْتُ تَجْوَالَ عَقْلِى فِي سَحِيقِ الأَجْوَا وَلُجِّ الْعُبَابِ[1]

أَنَا يَارَبِّ إِنْ أُدَارِى جِرَاحِى مِنْ صُنُوفِ الآلَامِ وَالأَلْغَابِ[2]

فَاهْدِنِى لِلصَّوَاب إِنِّى مُنِيبٌ ذُو تَسَامٍ إِلَى الْهُدَى وَالصَّوَابِ

---

(١) الأسلوب الصحيح: «هأنذا»، ولكن الشاعر تحلل من هذه القاعدة، والعباب: البحر.

(٢) جمع المصدر لتنوّعه.

الحجّي وأبو العلاء المعرّي

لقد كان الحجي ـ عافاه الله ـ كثير القراءة لأشعار المعرّى، كثير الإعجاب بآرائه، عظيم التعلق بحِكَمِهِ وأمثاله،.. لا يَمَلُّ من ترديدها، والتمثل بها، كما كان يرى أن المعايير المَعَرِّيَّة ـ في تقييم الحياة والناس:ـ أصدق المعايير وأمثلها و يرى أنه في ذلك قدوةٌ.
ومما يدل على ذلك قوله:

لِأَبِي العَلاءِ مَعَايِيرٌ مُوَفَّقَةٌ ... فِي النَّاسِ مَوْسُومَة بالْعَدْلِ وَالرَّشَدِ

وقولـــــه:

مَعَرِّيَّةُ ٱلأَعْرَافِ يَنْدَى أَدِيمها ... بأَذْفَرَ تُزْرِي ـ إذْ تَضَوَّعُ ـ بِالْعِطْرِ[1]

وَتُفْضِي إِذَا مَا اسْتُنْبِتَتْ فِي مَسِيرَهَا ... لِأَعْمَاقِ أَعْمَاقِ التَّأَمُّلِ وَالْفِكْرِ

والمتأمل فيما بين أيدينا من قصائد الحجي يحس بها أثر المعرى واضحاً حياً.. إلا أنه يأتي حيناً في صورة مقتضبةٍ، يقل قطرها عن شطر بيت ولكنها ـ من حيث المعنى ـ أكبر وأوسع من أن تُحَدَّ.

وقد تكون الصورة أكبر قُطْراً، وأوضح معالم، وأجلَّ قسمات من

---

(١) الأعراف: جمع عَرْف، وهو الرائحة، و يندى: يرطب، والأديم: الجلد، والأذفر: المسك. وتضوع: أصلها: تتضوع ـ بمعنى: تنتشر وتتفرق.

سابقتها عند الحجي، ولكنها تبقى على أي حال أضيق منها عند المعري.

على أن ذلك قد يُعْزَى إلى قلة مافي أيدينا من شعر الحجى.

ولعل في عَرْضِنَا ــ ولو **لصورتين** من صور تأثر الحجى بأبى العلاء ــ مايوضح عمق ذلكم التأثر وتغلغله في أعماق نفس شاعرنا الحجى.. حتى شاركه في أخص خصائصه التي عُرِفَ بها وعُرِفَتْ به، حتى أمست كأنها وقفٌ عليه.

أ ــ إن أرتفاع نسبة حرمة الإنسان لدى المعَرّيّ بلغت إلى حد حرمة الأرض التي اختلط بترابها جسمه بعد البِلَى.

وإنه ليوضح لنا ذلك في قوله من قصيدة يَرْثى بها عالما فقيهاً:

صَاحِ هَذِى قُبُورُنَا تَملأُ الرَّحْـــ ـــبَ فأيْنَ القُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ(١)؟

خَفِّفِ الْوَطْء مَا أَظُنُّ أَدِيَم الْـــ أَرْضِ إلاَّ مِنْ هَذِهِ الأجْسَادِ

وَقَبِيحٌ بِنَا وَإن قَدُمَ العَهْـــ ـــدُ هَوَانُ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ

سِرْ إنْ اسْطَعْتَ في الْهَواءِ رُوَيْداً لاَ اخْتِيالاً عَلَى رُفَاتِ العِبَادِ

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً ضَاحِكٍ مِنْ تَزاحُمِ الأضْدَادِ

(١) صاح: مرخم صاحب، على غير القواعد، والرَّحْبُ: المكان المتسع، ومثله الرَّحِيبُ والرَّحَاب، أما الرُّحْبُ والرَّحابة فصدران لرَحُب ــ ككرم وسمع ــ بمعنى: اتسع.

غير أن نسبة هذه الحرمة ترتفع عند الحجى إلى حد أنه يعتبر سيره على الأرض إساءة إلى الموتى، فيتمنى العيش في آفاق بعيدة عن الأرض يتخلص فيها من سوء معاشرة الأحياء، ومن جريمة المشي على رفات الموتى:

لاَ ٱلتَقِي بِالحَيِّ فِي أَرْجَائِهَا   أَبَداً ولاَ أُسِيءُ لِلْمَقْبُورِ

ب ــ وهذه صورة أخرى:

لقد نفض المعَرِّيُّ يدهُ من الدنيا وأهلها بعد أن بلاهم واختبرهم فلم تترك له طباعُهم في صحبتهم غرضاً، وفي ذلك يقول:

وَقَدْ غَرِضْتُ مِنَ الدُّنْيَا فَهَلْ زَمَنِي   مُعْطٍ حَيَاتِي لِغِرٍ بَعْدَمَا غَرِضَا (١)

جَرَّبْتُ دَهْرِي وَأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكَتْ   لِي التَّجَارِبُ فِي وُدِّ امْرِيءٍ غَرَضَا

أما الحجي فإنه لايكتفى بإعلان اليأس من إمكان مصاحبة الناس ــ بعدما خَبَرَهُمْ ــ ولكنه يقسمهم حسب طباعهم الخبيثة.. إلى نذل، وخائن، وحسود، وعدو، وكذاب.

خذ قوله:

أَمْ لأَنِّي أَرَى الأَنَامَ بِأَجْسَا   مٍ تَوارَى فِيهَا نُفُوسُ الذِّئَابِ

بَيْنَ نَذْلٍ وخائِنٍ وَعَدوٍّ   وَحَسُودٍ وَصَاحِبِ ذِي كِذابِ

(١) غَرِضتُ: ضجرت ومَلِلْت، والغِرُّ: الأبله المفتون.

على أن الفرق شاسع بين كُرهِ واحتقار المعرى... للحياة والناس، و بين كره واحتقار الحجي لذلك.

فالمعري يطلب البعد عن الناس على رغم طلبهم القرب منه، و يرفض الحياة على رغم عدم تضييقها الخناق عليه.

أما الحجي فإنه على استعداد لتقبل الحياة إذا ما انقادت له، وحلت وثاق فاقتها من عنقه، كما أنه على استعداد لمعايشة الناس إذا ماقبلوا معايشته ومعاشرته،... ولكنهم نفروا منه، فكان ماكان ثم إن نظرة أبى العلاء المعرى إلى الحياة على أنها سجن يتمنى الخلاص منه: نظرة مبنية على أساس فلسفي خاص.

أما الحجي فعلى الرغم من إكثاره من ذلك وإتيانه فيه بما يذيب المهج و يعصر القلوب ــ وذلك يرجع في يقيني إلى تبخر آماله، واحتراق أمانيه. وقيام العقبات في الطريق المنشود ــ نراه إذا أجهده اليأس وأوهنه القنوط يجأر بالشكوى، و يئن من الآلام ــ في مثل قوله:ــ

يَابَدْرَ إنّى فِي الحَيَاةِ مُعَذَّبٌ أَحْيَا عَلَى هَذَا الثَّرى كَأَسِير

مَنْ لِي بِمُنْطَادٍ يُجَنِّحُ بى عَلَى هَذِى الجِوَاء بِعَيْشِي الْمَيْسُورِ؟

لاَ أَلْتَقِي بِالحَىِّ فِي أَرْجَائِهَا أَبَداً وَلاَ أُسِىء لِلْمَقْبُورِ

إنّي سَئِمْتُ مِنَ الأَنامِ وَمَكْرِهِمْ وَرَأَيْتُ رُوحِى فِي حَشَا تَنُّورِ

إيهِ طُيورَ النَّحْسِ فِي أَرْضِي قِفِي   فَإِذَا شَخَصْتُ إِلَى السَّمَاءِ فِطِيري

يَاسَوْرَةَ الأَشْوَاقِ رِفْقاً بِي فَقَدْ   صَيَّرْتِنِي فِي هَيْئَةِ الْمنخُورِ

خَلَّيْتِنِي أَمْشِي وَحِيداً يَائِساً   قِيثَارُ عُمْرِي شَهْقَتِي وَزَفِيرِي

مَنْ لِي بِإِخْرَاجِي مِنَ السِّجْنِ الَّذِي   مَافِيه إلاَّ الصَّمْتُ صَمْتُ قُبُورِ

قَدْ حَاطَنِي سُورُ الظَّلاَمِ بِرُعْبِهِ   هَيَّا افْتَحِي ثُقْباً بِهَذَا السُّورِ

على أنك تحس أحياناً في شعره أفياء فلسفة عميقة ولكن الغموض والخفاء يكتنفانها... إما لأنها لم تتبلور بعد، وإما لأن وسائل إيضاحها غير متوافرة لدينا... لجهلنا بالكثير من إنتاجه.

وإذا أردت نموذجاً لذلك فاقرأ قصيدته «ثورة نفس»، وقد سبقت.

أغراض شعر الحجي

إن مافي أيدينا من شعر شاعرنا حمد الحجي، قليل ـــ كما أسلفنا ـــ ولايمكن الحكم به على شعر هذا الشاعر الفحل الذي كان يقول الشعر وكأنما كان يُمْلَى عليه إملاءً ـــ كما ذكرنا سابقاً.

حُدِّثْتُ أنه كان يستصحب معه دفتراً يسجل فيه كل ماينْظِمُ، غير أنه ـــ شفاه الله ـــ لم يُمَكِّن منه أحداً [1] ، بل الأدهى من ذلك، أنه كان قليل الارتياح، لإنشاد الناس شعره على مسمعٍ منه.

حَدَّثني بعض الإخوان أنه بعد مرضه وانقطاعه عن الدراسة كان يمر بالطلاب في المساجد والحدائق ـــ حيث يذاكرون ـــ فإذا ما استقر به المجلس معهم أنشدوا شيئاً من شعره، فيطأطىء رأسه، ثم تظلّلُهُ غمامة اكتئاب وصمت رهيب، ينسل بعدها من مجلسهم، و يولِّي مطرق الرأس، مضطرب الحركات.

فما سر ذلكم التصرف الغريب؟

لست أدري... إلا أن يكون ذلك جزءاً من برمه بالحياة والناس، وسوء ظنه بهم، والاستخفاف بتصرفاتهم، أو الامتعاض منها.

---

(١) انظر خبر ديوانه في المقدمة.

وربما كان ذلك نتيجة الشعور بمرارة الهزيمة أمام ذلك المرض... الذي أقعده عن مواكبة ركب أولئك الطلاب، وربما كان غير ذلك كله، والله سبحانه هو العليم بذلك.

لنترك مالا سبيل إلى علمه ولنعلِّقْ بشيء من الحديث عن أغراض شعر شاعرنا هذا فنقول:

إن أغراضاً أربعة ــ هي: التأمل، والوطنية، والوصف، والغزل تكاد تسيطر على مافي أيدينا من شعر هذا الشاعر.

١ ــ فأما التأمل، فغرض تخلل جميع قصائده، لا تكاد تمر بواحدة منها حتى تلمحه يلوح في ثناياها ــ وإن تجلى في بعضها دون البعض الآخر ــ وقد عرضنا فيما مرَّ إحدى مطولاته التي يتجلي فيها ذلك تمام التجلي، وهي قصيدة «من أعماق نفسي».

غير أن هذا التأمل الذي يدل على رهافة في الحس ورقة في الشعور، وأبعاد في النظرة التأملية، مشوب باكتئاب يائس، وتشاؤم مفرطاً جعله ينظر إلى كل شيء في الحياة ــ بما في ذلك الإنسان ــ نظرة شك وارتياب، ويظهر ذلك واضحاً في كل قصائده، واقرأ إن شئت قصيدته (في زمرة السعداء) [1] وستجد عجباً في موازنته بين حاله وحال الآخرين كيف أنهم مثله خُلِقوا سوية ونشأوا في ظروف متشابهة وذلك ما جعله يتساءل هذا التساؤل في أحد أبيات تلك القصيدة.

---

(١) انظر ص١٦ من هذا الكتاب.

أَلَسْتُ أَخَاهُمْ قد نَظَرْتَا سَوِّيةً   فَكَيْفَ أَتَانِى في الحَيَاة شَقَائِى؟

ويمكننا القول بأن ماعثرنا عليه من شعره من باب الشعر التأملي إلا ماندر مثل قصيدتيه اللتين حيًّا بهما مطابع الرياض، وجامعة الملك سعود [1].

٢ ــ وأما الشعر الوطني: فيبرز عندما يعرض الشاعر للحديث عن المشاريع والمنجزات: كافتتاح مطابع الرياض، وافتتاح الجامعة، أو عندما يتذكر بلاده وهو عنها ناءٍ، وقد سبقت.

وقد لايعد البعض تحية المطابع وتحية جامعة الملك سعود من باب الشعر الوطنى لكونهما من شعر المناسبات فيما يرون، وهذه نظرة خاطئة فندنا بعض أقوال أربابها فيها في غير هذا المقام [2].

ومما يدخل في هذا الباب ــ أعني الشعر الوطني ــ مايتصل بالحديث عن قضايا الأمة العربية مثل قضية الجزائر التي عاصر الحجي شِرَّتُها فحيا كفاح رجالها ضد الاستعمار الفرنسي بقصيدة تعد من جيد شعره وهى: «يوم الجزائر» وقد قَدَّمَ لهذه القصيدة بقوله:

هذا اليوم الذي ظهرت فيه النجدة العربية والأُخُوَّة العريقة والكرم الأصيل من العرب والمسلمين نحو الجزائريين المكافحين... هذا اليوم الخالد... إنه غرة في جبين هذا العام [3].

---

(١) انظر ص١٩، ٢١ من هذا الكتاب.

(٢) انظر كتابنا الشيخ محمد بن عبدالله بن بليهد وآثاره الأدبية جـ١ من ص ٣٥٠ إلى ص٣٥٣.

(٣) عن صحيفة اليمامة العدد ١١٦، بتاريخ ١٣٧٧/٩/١٠هجرية.

يوم الجزائر [1]

أَمْسَيْتُ أَرْتَقِبُ الصَّبَاحَ طَوِيلاَ وَرأَيْتُ لُبْثِي فِي الْمَسِيرِ ثَقِيلاَ

حَتَّى بَدَا الْفَجْرُ الضَّحُوكُ فَأَبْصَرَتْ عَيْنَاىَ صُبْحاً بَاسِماً وَجَمِيلاَ

يَوْمُ الْجَزَائِرِ قَدْ أَطَلَّ كَأَنَّهُ عِيدٌ يُصَافِحُهُ الْوَرَى تَقْبِيلاَ

يَوْمٌ بِهِ أَهْلُ الْمَكَارِمِ وَالنُّهَى بَذَلُوا النَّفِيسَ: مَعَ الدَّقِيقِ جَلِيلاَ

يَوْمٌ لِهَيْبَتِهِ رَأَيْتُ عَجَائِباً كِيسُ الْبَخِيلِ بِهِ غَدَا مَحْلُولاَ

الْمُصْلِحُونَ تَرَقَّبُوهُ فَكَبَّرُوا لَمَّا رَأَوْهُ وَهَلَّلُوا تَهْلِيلاَ

يَا مُنْفِقِينَ بِغَيْرِ مَنٍّ مِنْكُمُو قَدْ كَانَ هَذَا مِنْكُمُ الْمَأْمُولاَ

جُدْتُمْ بِخَيْرِ الْمَالِ مِنْ أَيْدِيكُمُو وَرَأَيْتُمُ الْبَذْلَ الْكَثِيرَ قَلِيلاَ

هَذِى عَطَايَاكُمْ جِزَالٌ قَدْ بَدَتْ لِلْمُجْتَلِي وَالْمَنُّ لَيْسَ جَزِيلاَ

لاَخَيْرَ فِي الْمَالِ الْوَفِيرِ يَحُوزُهُ مَنْ لاَ تَرَاهُ بَاذِلاً وَمُنِيلاَ [2]

جَاهَدْتُمُو فَالْجُودُ سَيْفُ جِهَادِكُمْ فَكَأَنَّهُ السَّيْفُ الْجُرَازُ صَقِيلاَ [3]

---

(١) المراد به: يوم جمع التبرعات للثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي.

(٢) كلمة «الوفير»: من الأخطاء الشائعة، والصحيح «الوافر»، والوَفْر، والموفور» ولكن الأخطاء شائعة دون فحص أو محص، ولو قال الكثير أو الغزير لأصاب.

(٣) الجراز: القاطع.

وَنَصَرْتُمُو إِخْوَانَكُمْ وَرَجَوْتُمُو ... أَنْ تَنْتَضُوا سَيْفَ الْوَغَى مَسْلُولاَ

حَتَّى تَرَوْا أَرْضَ «الْجَزَائِرِ» حُرَّةً ... وَتُشَاهِدُوا جَيْشَ الْعِدَا مَفْلُولاَ[1]

عَجَباً!! فَرَنْسَا قَدْ تَدَجَّى لَيْلُهَا ... فَمَضَتْ تُكَبِّلُ غَيْرَهَا تَكْبِيلاَ

كَمْ مِنْ بَرِيء فِي «الْجَزَائِرِ» هَادِيء ... أَخَذُوهُ فِي أَصْفَادِهِمْ مَغْلُولاَ

كَمْ شَيْخِ قَوْمٍ طَاعِنٍ فِي سِنِّهِ ... طَعَنُوهُ حَتَّى جَنْدَلُوُه قَتِيلاَ[2]

كَمْ مِنْ فَتَاةٍ قَدْ أَبَاحُوا عِرْضَهَا ... مَامِنْهمُوُ أَحَدٌ بِذَاكَ حَفِيلاَ[3]

كَمْ أَخْرجُوا مِنْ رَاتِعٍ فِي نِعْمَةٍ ... فَرَآهُمُو شَرّاً عَلَيْهِ وَبِيلاَ

كَمْ مِنْ مَكَانٍ آهِلٍ مُسْتَوْطَنٍ ... جَاءوا فَأَخْلَوْا رَبْعَهُ الْمَأْهُولاَ

مُذْ حَلَّ جَيْشُ الظُّلْمِ فِي أَوْطَانِهِمْ ... مَا اسْتَنْشَقُوا فِيهَا صَباً وَقَبُولاَ[4]

إِلاَّ صَبَا الْحُرِّيَّةِ الْحَمْرَا فَقَدْ ... هَبَّتْ عَلَيْهِمْ بُكْرَةً وَأَصِيلاَ[5]

---

(١) المفلول ــ بالفاء :ــ المكسور، ويجوز «مغلولا» ــ بالغين ــ بمعنى: «مقيداً في الأغلال».

(٢) جندل: فعل شائع، ولكن صوابه: «جدّل».

(٣) حفيل: مهتم ومبالغ في الاهتمام.

(٤) الصَّبَا: ريح طيبة تحمل الشذا العبق، والأرج الفواح، وتهب من الثريا إلى «بنات نعش» ونجد من ميادينها الفسيحة، والقبول: هي ريح الصبا، وسميت بذلك لأنها تقابل «الدَّبُور» أو لمقابلتها باب الكعبة، أو لأن النفس تقبلها، وذكرها بعد «الصبا»: تفسير أو توكيد.

(٥) الحرية الحمراء: التي تُنْتَزَعُ بالدم، وتسيل فيها النفوس. قال شوقي:

وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجه يدق

إنْ كُنْتِ لَيْلاً يَا «فَرَنْسَا» حَالِكاً ... فَبَنُو «الْجَزَائِرِ» أشْعَلُوا الْقِنْدِيلاَ

أوْ كُنْتِ ذِئْباً ضَارِياً فَأرَاهُمُو ... أُسْداً حَمَتْ آجَامَهَا وَالْغِيلاَ

الثَّوْرَةُ الْحَمْرَاءُ مِنْ أبْنَائِهَا ... شَبَّتْ فَكُنْتِ وَقُودَهَا الْمَأْكُولاَ

إنَّ «الْجَزَائِرَ» مِنْ مَوَاطِنِ يَعْرُبٍ ... وَلَوَ اسْتَحَمَّ نِضَالُهُ مَوْصُولاَ

مَا لِلْفَرَنْسِيِّينَ فِي جَنْبٍ لَهُ ... سَكَنٌ وَإنْ طَلَبُوا لَدَيْهِ مَقِيلاَ

يَاابْنَ «الْجَزَائِرِ» قِفْ لأرْضِكَ وَاحْمِهَا ... حَتَّى تُطَهِّرَ عَرْضَهَا وَالطُّولاَ

وَخُذِ الْقَنَابِلَ وَالسِّلاَحَ اضْرِبْ بِهِ ... مَنْ فِي حِمَاكَ مُزَاحِماً وَدَخِيلاَ

وَإذَا ظَفِرْتَ بِهِ وَأنْتَ غَضَنْفَرٌ ... فَاصْبُبْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ سُيُولاَ

قَدْ سِرْتَ فِي تَحْرِيرِ أرْضِكَ مُسْرِعاً ... فَقَطَعْتَهَا بَعْدَ الْحُزُونِ سُهُولاَ

وَدِمَاءُ أعْدَاءِ الْعُرُوبَةِ قَدْ غَدَا ... مِنْهَا سِلاَحُكَ نَاهِلاً مَغْلُولاَ

سِرْ فِي أمَانِ اللهِ وَاحْتَثَّ الْخُطَا ... وَادْفَعْ أمَامَ الْغَاصِبِينَ الْغُولاَ[1]

لاَتَسْأمَنَّ مِنَ الْجِهَادِ وَطُولِهِ ... أوَلَيْسَ سَعْيُكَ لِلْجَلِيلِ جَلِيلاَ؟

إنَّ الْبِلاَدَ بِأهْلِهَا فَبِعَزْمِهِمْ ... يُبْنَى لَهَا الْمَجْدُ الرَّفِيعُ أثِيلاَ

يَامَعْشَرَ الْعَرَبِ الْكِرَامِ تَحِيَّةً ... «أوْرَاسُ» تَبْعَثُهَا لَكُمْ تَأْهِيلاَ[2]

---

(١) الغُولُ ــ بضم الغين:ــ الهلكة والداهية.

(٢) أوراس: سلسلة جبال في شمال أفريقية، تمر بالجزائر.

وَتَـقولُ: إنَّ الرِّيحَ تَعْبَقُ بالشَّذَا جَـاءتْ إلَـيْـكُـمْ بِـالـثَّـنَاءِ رَسُولاَ
شَارَكْتُمُونى في الْكِفَاحِ فَكُنْتُمُو خِـلاًّ صَـدُوقـاً قَدْ أغَاثَ خَلِيلاَ
لِلـهِ دَرُّكُـمُـو رِجَـالَ مُـلِـمَّـةٍ... مَاكَانَ خَطْبِى عِنْدَكُمْ مَجْهُولاَ
كَـذَبَ الـفَرَنْسِى إذْ يَقُولُ بِأنَّهُ قَـدْ بَاتَ لِلكَرَمِ الأصِيلِ سَلِيلاَ
كَذَبَ الطُّغَاةُ إذِ ادَّعَوْ شَرَفاً لَهُمْ مـاكُـلُّ قَـوْلٍ مِـنْـهُـو مَـقْـبُـولاَ
شَـرَفُ الـطُّـغَاةِ لَوَ أنَّهُ مُتَجسِّمٌ لَبَدَا ضَئِيلاً في الْوُجُودِ نَحِيلاَ
مَا عَاشَ مَنْ سَفَكَ الدِّماءَ وَدَائِماً خَـابَ الَّـذِي ظَلَمَ الأنَامَ فَتِيلاَ
وَرَعَـى ألإلَـهُ مِنَ الأمَاجِدِ فِتْيَةً صَاغُوا الكَمَالَ لِهَامِهِمْ إكْليلاَ
يَسْعَوْنَ فِـي طَرَفِ الْفَخَارِ بِهِمَّةٍ وَثَّـابَـةٍ لاَ يَـعْـرِفُـونَ قُـفُـولاَ[1]

٣ ـ **وأما الوصف** : فإنك حينا تقرأ قصيدته «ذكرى لبنان»[2] و«يابدر» تتجلى لك قدرة الشاعر في وصف ماعرض لوصفه، سواء منه ماكان مدركاً بالحس وما كان مدركاً بالعقل... فأما الأولى فقد سبقت وأما الثانية فهي التي نظمها في مناسبة زيارة الأستاذ أحمد زكي لمدينة الرياض عام ١٣٧٧هـ، وأهداها إليه حينا زار كلية اللغة العربية، وكان الحجى أذاك طالباً بها، وهاهي ذي:

---

(١) القفول: الرجوع والهزيمة والارتداد.
(٢) سبق ذكرها صفحة ٢٤.

يا بدر

يَـابَدْرُ إنَّكَ فِي الظَّلامِ سَمِيرِي ... مَـالِـي سِـوَاكَ مُـنَـاغِمٌ لِشُعُورِي

أرنُـو إلَـيْـكَ وَمِلْءُ نَفِسْي وَحَشةٌ ... فَـأعُـودُ مَـوْسُـومَ الـمـنَـى بِـالـنُورِ

أجْمِلْ بِضَوْئكَ يَخْفِقُ الإظْلاَمُ فِي ... حَلَكَاتِ يَأسِي إنَّ دَجَا دَيْجُورِي

أهْوَاكَ إنْ هَبَطَتْ ذُكَاءُ فإنْ تَغِبْ ... أمْـسَـى هَوَايَ لِكَوْكَبٍ مَسْحُورِ

يَهتَزُّ فِي اللَّـيْـلِ البَهِيمِ كَأنَّماً... ... مَـرْآةُ مَـرْأي رَاعِـشٍ مَـغْـرُورِ

عَيْنِي تُنَاجِي الْقَلْبَ أنَّكَ مَرْتَعُ الـ ... أفْـلاَكِ بَـيْـنَ مَـزاهِـرٍ وَدُهُـورِ

هَلْ فِيكَ نَبْعٌ ضَاحِكٌ مُتَرقْرِقٌ ... يَـنْـسَـابُ بَيْنَ جَدَاوِلٍ وَصُخُورِ؟

هَلْ فِيكَ جَنَّاتٌ تَغَنَّى طَيْرُهَا ... وَتَـمَـوَّجَتْ بِنَسائِمٍ وَعُطُورِ؟

وَالْحُبُّ قُلْ لِي: مالّذِي تَدْرِيهِ مِنْ ... أمْرُ الْهَوَى إنْ كُنْتَ جِدَّ خَبِيرِ؟

ألَدَيْكَ «قَيْسٌ» مَاتَ مِنْ شَوْقٍ إلَى ... «لَيْلَى» وَلَمْ يَكُ وَصْلُهَا بِيَسِيرِ؟

هَامَت بِكَ الشُّعَرَاءُ قِدْماً حِينَمَا ... وَجَـدُوا لَـدَيْـكَ عُلاَلَةَ الْمَوْتُـورِ

وَرَأوْكَ نَـهْـراً مِـنْ لُجَيْنٍ خَالِصٍ ... سَـالَـتْ حَـواشِـيـهِ بِـكُـلِّ نَـمِـيرِ

رَوَّى الْعَوالِمَ مُنْذُ كَانَ بِفَائِضٍ ... مِـنْ عَـسْـجَـدٍ يَـجْـتَـازُ كُلَّ أثِيرِ

يَابَدْرُ هَلْ بِكَ مِثْلُ مَا بِالأَرْضِ مِنْ نَتْنٍ يُشَبُّ كَمَوْقِدٍ مَسْجُورِ[1]

إنْ أَقْبَلَ الصَّارُوخُ نَحْوَكَ فَاتِحاً فَادْفَعْ أَذَاهُ بِنَفْخَةٍ فِي الصُّورِ

أَوْ جَاءَ إنْسَانٌ إِلَيْكَ فَرُدَّهُ نَحْوَ التُّرَابِ بِخَيْبَةِ الْمَقْهُورِ

هُمْ أَفْسَدُوا هَذَا الثَّرَى وَتَطَايَرُوا لَكَ كَيْ تَمُورَ بِفِتْنَةٍ وَشُرُورِ

نَظَرُوا إِلَيْكَ فَشَمَّرُوا عَنْ عَزْمَةٍ عُرِفَتْ بِسُوءِ الْقَصْدِ فِي التَّدْبِيرِ

مَا عِنْدَهُمْ إلاَّ الأَذَى وَمَكَائِدٌ لاَ يَسْتَقِلُّ بِعَدِّهَا تَعْبِيرِي

فَاكْبَحْ جِمَاحَهُمُ فَإِنَّهُمُ أَبَوْا إلاَّ الْفَسَادَ بِسَائِرِ الْمَعْمُورِ

وَاسْحَقْ وَكُنْ كَالشَّمْسِ فِي عَلْيَائِهَا وَاصْمُتْ وَلاَ تَبْعَثْ لَهُمْ بِسَفِيرِ

يَابَدْرُ إِنِّي فِي الْحَيَاةِ مُعَذَّبٌ أَحْيَا عَلَى هَذَا الثَّرى كَأَسِيرِ

مَنْ لِي بِمُنْطَادٍ يُجَنِّحُ بِي عَلَى هَذِي الْجِوَاءِ بِعَيْشِيَ الْمَيْسُورِ

لا أَلْتَقِي بِالْحَيِّ فِي أَرْجَائِهَا أَبَداً وَلا أُسِيُّ لِلْمَقْبُورِ

إِنِّي سَئِمْتُ مِنَ الأَنَامِ وَمَكْرِهِمْ وَرَأَيْتُ رُوحِي فِي حَشَا تَنُّورِ

إِيهِ طُيُورَ النَّحْسِ فِي أَرْضِي قِفِي فَإِذَا شَخَصْتُ إِلَى السَّمَاءِ فَطِيرِي

يَاسَوْرَةَ الأَشْوَاقِ رِفْقاً بِي فَقَدْ صَيَّرْتِنِي فِي هَيئَةِ الْمَنْخُورِ[2]

---

(١) النَّتْن: الرائحة الكريهة.

(٢) السَّوْرَةَ: الحدة، ومثلها «السَّوَارُ».

خَلَّيْتِنِى أَمْشِى وَحِيداً يَائِساً ... فِيثَارُ عُمْرِى شَهْقَتِى وَزَفِيرِي

مَنْ لِى بإِخْراجِى مِنَ السِّجْنِ الَّذِي ... مَافِيهِ إلاَّ الصَّمْتُ صَمْتُ قُبُورِ؟

قَدْ حَاطَنِي سُورُ الظَّلاَمِ بِرُعْبِهِ ... هَيَّا افْتَحِى ثُقُباً بِهَذَا السُّورِ

قَسْراً مَلِلْتُ جَحِيمَ حُبِّى بَاكِياً ... مَا يَصْنَعُ الإِنْسَانُ بِالْمَقْدُورِ؟

أَمَلِي هَوىٰ كالْجَمْرِ في لُجَج الرَّدَى ... أَكَذَا نِهَايَةُ دَرْبِ كُلِّ صَبُورِ؟!

رَبَّاهُ لاَتَجْعَلْ مَصِيرَ أَحِبَّتِي ... أَنْ تُلْحِقَ الأَذَى بِهِمْ كَمَصِيرِي

يَا بَدْرُ قَاسِمْنِى الْمَرَارَةَ وَالأَسَىٰ ... فَلَقَدْ تكُونُ مِنَ الأَنَام نَصِيرِي

فِي مَسْبَحِ الأَفْلاَكِ جِرْمُكَ سَابِحٌ ... يَبْدُو صَغِيراً وَهُوَ جِدُّ كَبِيرِ

وَكَذَاكَ فِي قَلْبِي الْجِرَاحُ تَضَاءَلَتْ ... لِلنَّاسِ وَهِىَ عَمِيقَةٌ بِضَمِيرِي

إِنِّى لأَعْذِرُ إِنْ سَكَتَّ وَلَمْ تُجِبْ ... مَا دُمْتَ فِي هَذَا الظَّلاَمِ سَمِيرِي

على أن شاعرنا قد أغفل وصف المخترعات الحديثة ــ كالبرق والسيارة والطائرة والذَّرَّة وما إلى ذلك ــ مما تعجُّ به الحياة الجديدة في هذا العصر.

وكل نصيبه من ذلك إشارةٌ عابرة إلى «الكهرباء والراديو» وغزو الفضاء ولعله كان في شُغْلٍ شاغل عن ذلك بما هو فيه من صِرَاع نفسيٍّ مرير، صرفه عن مثل تلكم الميادين التي جال فيها شعراء العصر كبيرُهم وصغيرهم.

فالشيخ محمد عبدالمطلب ومعروف الرصافي وأحمد شوقي وكثير سواهم طرقوا هذا المجال.

غير أن الاستقرار الذهني الذي نعم به أمثال هؤلاء، والذي يعد ضرورة لطرق مثل هذا الموضوع قد حُرِمَ منه الحجي، فلعل هذا هو عِلَّة ذاك، وما العلم إلا لله.

وشأن الوصف عند شاعرنا كشأن جميع شعره يزينه التأمل ويرهقه اليأس والتشاؤم، وتصحبه الشكوى والألم حتى إنك لا تكاد تسير معه في إحدى قصائده حتى تحس الألم يعصر قلبك، وقد تجاوب دمعتك آهتك وأنت تتألم من حال هذا الشاعر الفحل الذي عضّت عليه نوائب الدهر فأرهقته إرهاقاً أفضى به إلى أن يبيت نزيل المصحات النفسية[1].

وفي قصيدته الآتية التي نظمها في ١٣٧٨/١٠/١٢هـ يمد نفسه في الوصف فلا يشغله عنه سواه، اللهم إلا حب نجد الذي يقتحم عليه قوله لأنه يصف الربيع فيها:

(١) زرته يوم الاثنين ١٤٠٦/١/٢هـ الساعة ٧ مساء في المصحة النفسية في حي عليشة بالرياض وكتبت عنه مقالة نُشِرَتْ في مجلة الحرس الوطني العدد ٣٧ تاريخ ربيع أول ١٤٠٦هـ.

مفاتن الربيع

جَاءَ الرَّبِيعُ فَمَاسَ الكَوْنُ تَرْحِيباً وَغَنَّتِ الوُرْقُ فَوْقَ الأَيْكِ تَطْرِيبَا[1]
وَصَارَتِ الأَرْضُ مُخْضَرّاً جَوَانِبُهَا بالنَّبْتِ تَلْقَاهُ مَفْرُوشاً وَمَنْصُوبَا
فَلَوْ نَظَرْتَ ضُحىً نَحْوَ الرِّيَاضِ وَمَا فِيهَا مِنَ الحُسْنِ مَبْثُوثاً وَمَسْكُوبَا
وَطَالَعَتْ عَيْنُكَ الأَزْهَارَ بَاسِمَةً وَالطَّيْرَ صَادِحَةً وَالمَاءَ مَصْبُوبَا
أَيْقَنْتَ أَنَّ الرَّبِيعَ الغَضَّ مُؤْتَلِقاً مَغْنى مِنَ الخُلْدِ..لكن لَيْسَ مَحْجُوبَا[2]
ثُمَّ ارْتَسَمَتْ عَنْكَ آلامُ الحيَاةِ كَمَا قَدْ أَسْعَدَ الأَمَلُ المَحْبُوبُ مَكْرُوبَا
فَهَلْ غَدَوْتَ إِلَى أَعْشَابِ مَشْجَرَةٍ كَيْمَا تُرَى بِكَمَالِ العَيْشِ مَصْحُوبَا؟
وَرُحْتَ تَنْظُرُ تَصْعِيداً إِلَى أُفُقٍ زَاهٍ وَطَوْراً إِلَى الأَشْجَارِ تَصْوِيباً[3]
وَأَبْصَرَتْ عَيْنُكَ الغُدْرَانَ صَافِيَةً قَدْ صُفَّ مِنْ حَوْلِهِنَّ الزَّهْرُ تَرْتِيباً
لأَنْتَ نَشْوَانُ رَحْبُ الصَّدْرِ حِينَ تَرَى وَجْهَ السَّمَاءِ بِوَجْهِ الأَرْضِ مَقْلُوبَا

(١) ماس: دل واختال وتاه، والورق: الحمائم ــ مفردها: ورقاء، والأيك: الدوح ومجتمع الشجر.

(٢) المغنى: محل الإقامة المريح، والخلد: الجنة.

(٣) التصعيد والتصويب: الارتفاع والانخفاض.

قُلْ لِلَّذِي زَارَ بُلْدَاناً مُجَاوِرَةً فَبَاتَ مِنْ عَقْلِهِ المَخْدُوعِ مَسْلُوبَا

لاَ تَذْهَبَنَّ بِكَ الذِّكْرَى مُجَنَّحَةً وَتَرْتَقِي بِكَ فَوْقَ السُّحْبِ مَنْهُوبَا

فَـ «نَجْدُ» أَفْعَمُ حُسْناً بِالرَّبِيعِ لِذَا أَمْسَى الْجَمَالُ لِـ«نَجْدَ» الْيَوْمَ مَنْسوباً

أُنْظُرْ إِلَى الرَّبَوَاتِ الفِيحِ قَدْ خَلَعَتْ يَدُ الْجَلاَلِ عَلَيْهِنَّ الْجَلاَبِيبَا[1]

وَانْشَقْ شَذَى عِطْرِهَا الفَوَّاحَ فِي طَرَب وَاشْمَمْ عَبِيرَ نَسِيمٍ يَحْمِلُ الطِّيبَا

فَمِنْ خُزَامِي إِلَى رَنْدٍ يَضُوعُ بِمَا يَشْفِي الصُّدُورَ وَيُقْصِي الْهَمَّ مَحْرُوباً

وَمِنْ مَعَانٍ بِهَا الآرَامُ وَاثِبَةٌ يَمْرَحْنَ مَاخِفْنَ صَيَّاداً وَلاَذِيباً[2]

يَقْطَعْنَ نَوْرَ الرُّبَا الْخَضْرَاءِ فِي جَذَلٍ وَيَنْتَحِينَ لُجَيْنَ الْمَاءِ مَشْرُوبَا[3]

مَفَاتِنٌ تَدَعُ الأَشْجَانَ نَافِرَةً مِنَ الْقُلُوبِ وَتَكْسُو النَّفْسَ تَهْذِيبَا

لَوْ أُوتِيَ الطَّيْرُ إِفْصَاحاً وَمَعْرِفَةً لَرَاحَ يَنْظُمُ فِيهَا الشِّعْرَ تَشْبِيبَا

فَاجْعَلْ لَهَا سَاعَةً وَانْعَمْ بِمَشْهَدِهَا إِنْ كُنْتَ تَلْمِسُ فِي دُنْيَاكَ تَعْذِيبَا

---

(١) الفيح: جمع فيحاء، وهي المنتشرة الرائحة.

(٢) الآرام: جمع رئم، وهو الغزال.

(٣) كان الواجب أن يقول «الربا الْخُضْر» ولكنه وقع في خطأ معاصر يتردّى فيه كثير من الأدباء، وكان في إمكانه أن يقول:
«يقطن نور الرياض الخضر في جذل»
ولكنه ظن أن هذا الخطأ صواب.. قال ابن مالك في الألفية:
«فُعْلٌ لنحو: أَحْمَرٍ وَحَمْرَا». والجذل: الفرح والسرور.

فَالنَّفسُ تَنْشَطُ مِمَّا قَدْ أَضَرَّ بِهَا مَاذُقتَ مِنْ نَغمَاتِ الْحِسِ مَوْهُوبَا
تِلْكَ الطَّبِيعَةُ فَانْهَلْ مِنْ مَنَاهِلِهَا وَقِفْ بِهَا كَيْ تَرَى فِيها ألأَعَاجِيبَا
يَغلُو بِكَ الفِكْرُ في تَمْجِيدِ مُبْدِعِهَا مَنْ أَحْسَنَ الْخَلْقَ تَكْوِيناً وَأُسْلُوبَا
حَتَّى يَرُوحَ لِسَانُ الْحَالِ مُنْطَلِقاً بَيْنَ التِّلاَلِ رَفِيعَ الصَّوْتِ مَرْغُوبَا
يَامُلْبِسَ الكَوْنِ أَلْوَاناً مُصَبَّغَةً مِنَ الْجَمَالِ سُهُولاً أَوْ أَهَاضِيبَا
وَجْهُ الشِّتَاءِ تَوَلَّى مُدْبِراً وَبَدَا وَجْهُ الرَّبِيعِ ضَحُوكَ الثَّغْرِ مَحْبُوبَا
وَمَا تَرُوقُ لَنَا أَصْنَافُ رَوْعَتِهِ حَتَّى يَزُولَ بِلَفْحِ الصَّيْفِ مَنْكُوبَا
جَعَلْتَ أَيَّامَنَا نَوْعَيْنِ مِنْكَ فَذَا يَبْدُو رَهِيباً وَيَبْدُو ذَاكَ مَرْغُوبَا

٤ ـ **الغزل** : وله في ذلك قصائد ثلاث تنطق بالعواطف الصادقة المتأججة والحب الموغل في أعماق نفس الشاعر، إلا أنه حب تكدره مرارة عميقة و يظلله اكتئاب مظلم، و يكتنفه الخوف المربك، والتشاؤم الموحش ـ شأنه في جميع شعره ـ إلا أنه فيه أعطى حبيبه كل ما ملكته عاطفته، وما استطاع أن يتناوله خياله الخصب الجم العطاء.

فمن ذلك قصيدته:

فتنة[1]

أيَا فِتْنَةَ العَاشِقِ المُسْتَهَامِ — أتَرْضَيْنَ لِى سَيِّىء المُنْقَلَبْ؟
أظُنُّكِ لَسْتِ مِنْ الإنْسِ بَلْ — مَلاَكٌ يَسِيرُ يَشُقُّ الحُجُبْ
وَإنْ كُنْتِ حُورِيَّةً فِي الجِنَانِ — فَكَيْفَ أتَيْتِ وَمِمَّ الهَرَبْ؟
تَذَكَّرْتُ خَدَّيْكِ عِنْدَ الوُرُودِ — فَهَاجَ الفُؤادُ أسىً وَاضْطَرَابْ
وَمَالَ بِبُسْتَانِنَا الغُصْنُ غَضّاً — فَوَافَى بِقَدِّكِ لَمَّا انْقَلَبْ
وَهَبَّ النَّسِيمُ بِعِطْرِ الزُّهُورِ — فَجَاءَ بِرَيَّاكِ لِى حِينَ هَبْ
وَمَا نَفْحَةٌ مِنْ شَذَاكِ الحَبِيبِ — كَنَفْحِ الزُّهُورِ وَعِطْرِ العُلَبْ
سَأحْفَظُ حُبَّكِ فِي مُهْجَتِى — وَأوْدِعُهُ صَفَحَاتِ الكُتُبْ
لِيَقْرأهُ النَّاسُ وَالمُغْرَمُونُ — فَيَدْرُونَ مَاذَا يُلاَقِى المُحِبْ؟

وله في ذلك أيضاً :

---

(١) هذه القصيدة مناوله من أحد الأخوان.

إلى باعث الشكوى (1)

أَيَا بَاعِثَ الشكْوَى.. بِنَفْسِى أَلَمْ يَحِن لِقَاءٌ لِكَيْلاَ تَسْتَبِدَّ بِى الشكْوَى

بَكَيْتُ وَلَوْ أَنِّى عَلَى الصَّبْرِ قَادِرٌ كَتَمْتُ وَلَكِنِّى عَلَى الصَّبْرِ لاَ أَقْوَى

لَقَدْ ذُقْتُ مِنْكَ الْحُبَّ مُرّاً مَذَاقُهُ وَإِنِّى لأَرْجُو أَنْ تُصَيِّرَهُ حُلواً

أَلَسْتُ إِذَا مَا عَنَّ أَمْرٌ لِخَاطِرِى أَتَيْتُ الَّذِي تَهْوَى وَجَانَبْتُ مَا أَهْوَى

فَإِن كُنْتُ لِلذَّنْبِ الْجَلِيلِ مُقَارِفاً فَآمُلُ مِنْكَ الْيَوْمَ عَمَّا مَضَى عَفْوَا

فَلَوْ أَنَّ جُسمَانَنَا تَقَطَّعَ بِالْجَوَى لَمَا أَبْقَتِ الأَشْوَاقُ مِنِّى وَلاَ عُضْوَا

وَكَمْ قُلْتُ لِلْقُلْبِ: اسْلُ عَمَّنْ تَوَدُّهُ فَإِنَّ كَبِيرَ النَّفْسِ أَخْلَقُ بِالسَّلْوَى

وَلَكِنَّ قَلْبِي كَانَ لِلشَّوْقِ طَيِّعاً فَلَمْ يَلْتَفِتْ لِي بَلْ أَطَاحَتْ بِهِ الأَهْوَا

سَكَنَّا بِقَرْوَى. وَالْحَبِيبُ جِوَارَنَا فَلِلَّهِ مَغْنى قَدْ سَكَنَّاهُ فِي «قَرْوَى» (2)

شَرِبْنَا بِهِ كَأْسَ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى وَحَمَّلَنِى – يَاوَيْحَهُ – أَعْظَمَ الْبَلْوَى

وَكُنْتُ أَظُنُّ الْوَجْدَ شَيْئاً مُيَسَّرَا فَأَمْسَى بُرُوحِي عَاصِفُ الْوَجْدِ قَدْ أَلْوَى

---

(1) هذه القصيدة مناوله من أحد الأخوان.

(2) حي بالطائف [و«جوارنا – بفتح الراء – على نزع الخافض – أي في جوارنا].

وله أيضاً :

بين النشوة والعذاب[1]

كَمْ لَيَالٍ مِنْ حُسنِهاَ بَعَثَتْ فِي الـــــرُّوحِ رَوْحاً مَعِينُهُ لايَنْضُبْ[2]

كُنْتُ مِنْ فَرْحَتِي أَظُنُّ دُجَى اللَّيـ ــلِ نَهَاراً وَأَحْسَبُ الكَأْسَ أَشْنَبِ

وَلَيَالٍ بالشَوْقِ قَدْ أَحْرَقَتْنِي فَعَلَى حَرِّ جَمْرِهَا أَتَقَلَّبْ

طَوَّقَتْنِي الأَحْدَاثُ مِنْهَا فَبَاتَتْ لَيْسَ مِنْهَا مَنْجىً سِوَى قَوْلُ: يَارَبْ

لَيْتَ دَهرِي رَبَّى الْفُؤادَ عَلَى الحِلْـ ـمِ فَلاَ يَنْتَشِي وَلاَ يَتَعَذَّبْ

ومن هذا الباب قوله :

الحسن في الطائف[3]

الحُسْنُ فِي الطَّائِفِ أَلْوَانُهُ كَثِيرَةٌ فِي عَيْنِ مَنْ يَنْظَرْ

لَكِنَّمَا الحُسْنُ الَّذِى شَاقَنِي وَبَاتَ عَقْلِي مِنْهُ لاَيُبْصِرْ

---

(١) هذه القصيدة مناوله من أحد الأخوان.

(٢) رَوْحاً: راحة ورحمة، والمعين: النبع، ولاينضب : لايجف.

(٣) قال الحجي: «هذه القصيدة نظمتها عام ١٣٧٦هـ، وعلى وجه التحديد في صيف ذلك العام، وكنت إذ ذاك بمدينة الطائف، وقد ضاعت منى، ويئست منها، وبينما كنت أقلب في أوراق عندى عثرت عليها، وأثارت في نفسي أمواجاً من الذكرى، ورأيت أن من الوفاء للصبا وفتونه أن أنشرها، وأهديها لمن دفعنى إلى قولها»... العدد الثاني من مجلة الجزيرة، السنه الثالثة ١٣٨١هـ.

مُـجَـسَّـمٌ فـي غَـادَةٍ حُـلْـوَةٍ تَمْشِي الْهُوَيْنَى طَرْفُـهَا يَسْحَرْ

كَـالـغُـصْـنِ تَـهْـتَزُّ إذَا مَامَشَتْ تَكادُ مِنْ طَرْفِ الصِّبَا تَعْثُرْ(١)

مِـنْـدِيـلُـهَا ألأخْضَرُ فِي كَفِّهَا يَـاحَـبَّـذَا مِـنْـدِيـلُـهَـا الأخْـضَرْ

الـدُّرُّ وَالْـجَـوْهَـرُ فِـي نَـحْـرِهَـا يَـالـيَـتْـنـى الـدُّرُّ أوِ الْـجَـوْهَـرْ

مَـا الْـخُـمْرُ إلاَّ أنْ أرَى وَجْهَهَا فَـنَـظْـرَةٌ فِـي وَجْـهِـهَـا تُـسْـكِرْ

مَـا الـمَـوتُ إلاَّ أنْ أرَى قَـدَّهَـا فَـلَـيْـسَ قَـدّاً.. بَـلْ قَـنـاً أسْمَرْ

فَـوَّاحَـةٌ بـالـطِّـيـبِ فَـتَّـانَـةٌ كـأنَّـمَـا مَـشْـرَبُـهَـا الـكَـوْثَـرْ

حَـسِـبْـتُـهَـا مِـنْ مَـرْمَـرٍ إذْ بَـدَا لِـى بَـعْـضُـهَـا فِي طَلْعَةٍ تَبْهَرْ

وَرُحْـتُ فـي تَـسْآلِ قَـلْـبٍ شَـجٍ عَـنْ صُـنْـعِ جِـسْمٍ بَعْضُهُ مَرْمَرْ

قَدْ عَابَنِى فِي صَبْوتى صَاحِبى وَرَاحَ مِـنْ حُـبِّـى لـهَـا يَـسْـخَـر

وَقَـالَ: إنْ تُـضْـبِـحْ أسِيرَ الْجَوَى فَـسَـوْفَ يَـدْنُـو مُـوْتُـكَ الأحْـمَرْ

فَـاتْـرُكْ هَـوَاهَـا وَانْـهَ عَنَّ حُبِّهَا يُـغـنِـيـكَ عَـنْـهَا الـشَّـعْرُ وَالـمِزْهَرُ

فَـقُـلْـتُ: إنَّ الْحُبَّ يَاصَاحِبي بِـالـرَّغْـمِ مِـمَّـا قُـلْـتَـهُ يَـأْسِـرْ

لَوْ كَانَ قَلْبِي طَائِعي لَمْ أكُنْ يَوْماً عَلَى نَارِ الْجَوَى أصْهَرْ(٢)

(١) عثر: من باب ضرب ونصر وعلم وكرم.

(٢) طائع: اسم فاعل من «طاع له.. يَطُوعُ و يَطَاعُ» بمعنى انقاد له.

لَكِنَّما هَذِى القُلُوبُ الَّتِى تَحْمِلُهَا تَسطُو وَلاَ تَحذَرْ

يَالَيْتَ قَلْبِي فِي الْهَوَى عَادِلٌ رَاضٍ فَلاَ يَنْتَهى وَلاَ يأمُرْ

هَوَايَ وِرْدِى المُسْتَطَابُ الَّذِى أَسْقَيْتُهُ دَمْعِى الَّذِي يَقْطُرْ

أُحْرَمُ مِنْهُ زهْرَةً قانياً وَفِى طَرِيقِي شَوْكُهُ يُنْشَرْ

هَوَايَ مَا أعْجَبَهُ مِن هَوىً كَاللَّيلِ فِيهِ قَمَرٌ نَيِّرْ

غَابَ فَمَا أبْقَى سِوَى ظُلْمَةٍ يَرتَاعُ مِنْها دَرْبِيَ المُقْفِرْ

كَمْ مَظْهَرٍ قَدْ شَفَّ عَنْ مَخْبَرٍ حَتَّى بَدَا كالصُّبْحِ إذْ يُسْفِرْ

إلاَّ الهَوَى لَمْ أدْرِ مَاسِرُّهُ؟ مَاشَفَّ عَنْ مَخْبَرِهِ المَظْهَرْ

الحُبُّ أسْمَى مِنَ جِمِيعِ الَّذِى قَدْ صَوَّرُوهُ.. مَا الَّذِى صَوَّرْ

الحُبُّ فِي الرُّوحِ خَفِيٌّ وَمَنْ يَرْفَعُ سِتْراً دُونَهُ يُسْتَرْ

لاَ يُفصِحُ الإنْسَانُ عَنْ حُبِّه لَوْ هُوَ لاِمَرْتَينِ[1] أَوْ أكْثَرْ

قَدْ قُلْتُ ـ إذْ أَلْفَيْتَنِى عَاجِزاً:ـ اللهُ مِنْ مَعْنَى الهَوَى أكْبَرْ

---

(١) هو الفونس دو لامرتين شاعر فرنسي، ولد سنة ١٧٩٠م وتوفي ١٨٦٩م، يشترك مع الحجي في النزعة السوداوية والتأملية، وهو الذي أعاد العاطفة الحادة إلى الشعر الفرنسي ومن أشهر قصائده (البُحيرة).
وفي أخر حياته عاش في فقر وعزله بسبب نشاطه السياسي وسخط (نابليون الثالث) عليه.

قَدْ كُنْتُ أُسْقَي بِالرَّحِيقِ الَّذِي تَسْكُبُهُ عَينَاكَ يَا أَحْوَرْ

فَبَاتَ فِي قَلْبِي لَهِيبٌ وَمَا حَوْلِيَ إِلاَّ مَنْهَلٌ أَكْدَرْ

وَرَسْمُكَ الحُلْوُ مَعِي كُلَّمَا لَجَّ بِي الوَجْدُ لَهُ أَنْظُرْ

كَمْ لَيْلَةٍ سَامَرْتُهُ سَاهِراً لِأَنَّنَا كُنَّا ـ مَعاً ـ نَسْمُرْ

وَيَنْتَهِي اللَّيْلُ وَمَا فِي يَدِي إِلاَّ خَيَالٌ لِلَّذِي أَذْكُرْ

كَأَنَّمَا أَنْظُرُ فِي صَفْحَةٍ لِلْمَاءِ نَجْماً فِي السَّمَا يَزْهَرْ

وَهَكَذَا يُصْبِحُ صُبْحِي وَفِي جَفْنِي دُمُوعٌ مَاؤُهَا يَمْطُرْ

مَا أَدْمُعِي تِلْكَ وَلَكِنَّهَا دَمِي الَّذِي فَاضَ بِهِ المَحْجَرْ

هَذَا شُعُورِي فَاقْبَلِي وَاعْلَمِي أَنَّ فُؤَادِي بِالهَوى يَذْخَرْ

تَذَكَّرِي أَنِّي أَخُو لَوْعَةٍ وَصَاحِبُ اللَّوْعَةِ لاَ يَصْبِرْ

مَتَى أَرَى خَطَّكِ فِي رُقْعَةٍ ضَمَّخَهَا «الرِّيف دُوْر» وَالْعَنْبَرْ[1] ؟

مَتَى؟ مَتَى؟ فَالنَّارُ فِي مُهْجَتِي بُرْكَانُ «فِيزُوفَ»[2] إِذْ يزْخَرْ

على أن مما يلفت النظر في مطالع شاعرنا:

---

(١) «الريف دور» نوع من العطور التي تصنع في فرنسا.

(٢) فِيزُوفَ: بركان على بعد ٨ كيلو متر جنوب شرقي (نابولي) فى إيطاليا ثار أول مرة سنة ٧٩م فدمر (هركو لانوم) و (بومباي).

(أ) اطّراحه النسيب في جميع شعره على رغم ولوع شعراء العربية القدامى، والكثير من المتأخرين بذلك.

(ب) وأخذه بالغرض الذي قصده من أول بيت إلا أنه مع ذلك يبقى محافظاً على وحدة القصيدة وتماسك البناء العضوي فيها على رغم طغيان (موجات) التجديد في هذا الموضوع لدى أبناء عصره ــ في جميع أقطار العربية حتى في هذه البلاد التي يجب أن يترفع أبناؤها عن مثل هذا العبث والعيث والفساد الكبير.

٥ ــ **نفحات دينية** : والذين تحدثوا عن الحجي صوروه في صور تُنحّيه عن ينابيع الدين وتحرمه من دفقاته الحانية، ولم يعلموا أن الحجي كان قوى الصلة بربه، يقبل على تلاوة كتاب الله في الليل حيث لايراه أحد سوى ربه سبحانه وتعالى.

وإذا كان شاهد الناس على الإنسان ــ في الغالب ــ قوله فإن للحجي قصيدة تشهد بذلك وإن غلبته على نفسه في آخرها نزعة التشاؤم، ولفحة اليأس وهذه القصيدة هي: ليلة مع الآمال [١].

(١) عن صحيفة اليمامة بتاريخ ١٣٧٧/٧/٢٧هـ، العدد ١١٠.

ليلة مع الآمال

اللَّيْلُ بِالإِظْلاَمِ مُعْتَكِرُ وَالكَوْنَ فِي الدَّيْجُورِ مُنْذَعِرُ

قَدْ نَامَتِ الأَحْيَاءُ فِيهِ كَأَنْ قَدْ رَاعَهَا كَالشَّرِّ يَنْتَشِرُ

وَبَقِيتُ بَعْدُ مُرَتِّلاً سُوراً يَاَ حَبَّذَ التَّرْتِيلُ وَالسُّوَرُ

أَبْكِي بِجَوْفِ اللَّيْلِ لِي أَمَلاً يَهْوِي كَمَاَ تَهْوِي بِهِ الزُّهُرُ[1]

أَيْ: أَدْمُعِي مَا أَنْتِ رَاحِضَةٌ قَدْ عَزَّ بَعْدَ المَوْرِدِ الصَّدَرُ[2]

أَوَّاهُ... خَرَّ العِقْدُ مُنْفَرِطاً وَالجِيدُ مِنْهُ ازْدَانُ وَالنَّحَرُ[3]

آمَالَ نَفْسِي صِرْتُ مُنْقَبِضاً آمَالَ نَفْسِي مَسَّنِي الضَّجَرُ

آمَال نَفْسِي اليَوْمَ لِي أَمَلٌ فِي أَنْ يَزُولَ الهَمُّ وَالسَّهَرُ

قَدْ رَنَّقَتْ صَفْوِي الحَيَاةُ فَمَنْ يَرْضَى بِعَيْشٍ كُلُّهُ كَدَرُ؟

تَتَطَايَرُ الآلاَمُ فِي أُفُقِي كَالنَّارِ طَارَ يَشُبُّهَا الشَّرَرُ

---

(١) الزهر ــ جمع زهراء ــ: النجوم، وهويها: تساقطها.

(٢) الراحضة: الغاسلة. رَحَضَهُ ــ كأرحَضه ــ: إذا غسله.

(٣) النحر ــ بالتحريك ــ للضرورة، أو بالتسكين مع الزحاف.

يَا أَيُّهَا الآمَالُ قَدْ فَهَقَتْ   كَأْسِي وَفِيهَا الحُزْنُ وَالْفِكَرُ

أَوْ تَذْهَبِينَ وَلَسْتِ رَاجِعَةً   مِثْلَ الزُّجَاجَةِ حِينَ تَنْكَسِرُ؟

أَنَا نَبْعَةٌ مَا كَانَ أَنْضَرَهَا   وَالْمَاء عَنْهَا الْيَوْمَ مُنْحَسِرُ

قَدْ كَانَ لِلأَطْيَارِ شَقْشَقَةٌ   فِيهَا كَمَا يَتَرَنَّمُ الْوَتَرُ[1]

بَاتَتْ لَهَا الأَرْوَاحُ قَاصِمَةً   تَتَسَاقَطُ الأَوْرَاقُ وَالثَّمَرُ[2]

لاَ غَرْوَ أَنْ ذَبُلَتْ غَضَارَتُهَا   فَلَقَدْ ذَوَى زَهْرُ الرُّبَا الْعَطِرُ

وَبَدَا الصَّبَاحُ بِنُورِهِ فَعَدَا   عَنْهُ الظَّلاَمُ وَكَانَ يُحْتَضَرُ[3]

وَسَرَى الضِّيَا فِي الْكَوْنِ مُنْبَثِقاً   فَإِذَا الْحَيَاةُ جَمِيعُهَا صُوَرُ

وَدَفَنْتُ آمَالِي بِمَقْبَرَةٍ   لَكِنَّهَا فِي الْقَلْبِ تُحْتَفَرُ

وَرَأَيْتُ أَفْوَاجَ الأَنَامِ مَشَوْا   كُلٌّ لَهُ فِي صَخْبِهِ وَطَرُ

فَنَسِيتُهَا وَمَشَيْتُ مُنْدَفِعاً   لَكِنَّنِي لِلنَّيْلِ مُنْتَظِرُ

٦ ــ الشكوى من الغربة والتشوق إلى الوطن:

وهذا غرض طرقه الحجي في أكثر من قصيدة سلفت، ومنه قوله:

---

(١) الشقشقة: الأصوات المبهمة.

(٢) الأرواح: الرياح، وقاصمة: كاسرة فاصلة.

(٣) يُحْتَضَرُ ــ بالبناء للمجهول ــ: يموت... بمعنى: يذهب و يزول.

أسْمَاء فِي نَـجْد مَغْنَـاهَا وَمَرْتَعَهَا   يَاحَبَّـذَا فِي رَوَابِي نَـجْدِ أسْمَـاء

إلا أنه فيما سلف كان مبثوثاً يجيء عَرَضًا ولايقصد غرضا.

أما قصيدته (ياعيد) فقد وقفها عليه فجاءت معبرة عن ذلك لاحتوائها من عواطف الحجي ومشاعره ـ تجاه نجد وساكنيه ـ على أعمقها وأشدها حرارة ـ إذ يخاطب العيد وكأنه يلومه على أن أتى في وقت فَقَدَ فيه نعيم الروح، فأرخت الأشجان سدولها... لما نأى الأهل، وشطت جيرة الأحباب، فسكب في الشعر حنينه وأنينه... من آلام البين، ولواعج الفراق، كأنما قد شوى الأضلاع على سفود، صيرته ذكراهم راعشاً كالأملود [1] في مهب الريح.. فتظنه ـ حين تراه ـ شيخاً في السبعين، على الرغم من حداثة سنه،... ويجنه الليل فيبقى فيه كالشبح المنتصب... يرعى النجوم التي يبصر فيها عيوناً تُطِلُّ على الأحباب الذين لم تُسْلِه عنهم زرافات الغيد [2] من حوله وتدوِّى في أفقه الأغاريد والزغاريد وتحوِّم في جِوَائه كواكب العيد، ولكنه غريب عنها، وبها غير سعيد، فعيده سقام وانبعاث أسى.

....   «وَدَمْعُهُ إنْ شَـدَا الشَّادُونَ تَغْرِيدُ»

---

(١) السفود: حديدة تدخل في اللحم ليشوى عليها، وهي المعروفة «بالسِّيخ»، والأملود: كالإمليد والأُمْلِدِ والأُمْلُدان والأُمْلُدانى ـ: الناعم اللين من الناس ومن الغصون. والمراد ـ هنا ـ الأخير.

(٢) الغيد: جمع «غيداء» والزرافات: الجماعات.

يـا عيـد [1]

يَا عِيدُ وَافَيْتَ وَالأشْجَانُ مُرْخِيةٌ ... سُدُولَهَا وَنَعِيمُ الرُّوحِ مَفْقُودُ

لا الأهْلُ عِنْدِي وَلا الأحْبَابُ جِيرَتُهُم ... حَوْلِي فَقَلْبِي رَهِينُ الشَّوْقِ مَفْئُودُ [2]

الْعَيْنُ تَرْنُو وَطُولُ البَيْنِ فَاجِعُهَا ... حَسْرَى وَإِنْسَانُهَا بِالأُفْقِ مَعْقُودُ

تَجْرِي دِمَائِي دُمُوعاً فِي مَحَاجِرِهَا ... عَلَى وِسَادِي لَهَا صِبْغٌ وَتَسْهِيدُ

أُمسِي وَأُصْبِحُ وَالأحْزَانُ تُحْدِقُ بِي ... لاَ الرَّوْضُ يُجْدِي وَلا الْقِيثَارُ وَالْعُودُ

أَزْوِي اشْتِيَاقِي وَأنِّي فِي نَوىً وَجَوىً ... وَأنَّنِي بِقُيُودِ الهَمِّ مَصْفُودُ [3]

يَاسَاكِنِي نَجْدَ إِنَّا بَعْدَ بَيْنِكُمُ ... كَأَنَّمَا قَدْ شَوَى الأضْلاعَ سَفُّودُ

فَادْعُوا بِحَقِّ الهَوَى أَنْ نَلْتَقِي بِكُمُ ... فَإِنَّ أَيَّامَنَا مِنْ بَعْدِكُمُ سُودُ [4]

يَالَيْتَكُمْ تُبْصِرُونَ الصَّبَّ عَنْ كَثَبٍ ... حَتَّى يَبِينَ الَّذِي يَلْقَاهُ مَعْمُودُ

---

(١) راجع مجلة (القصيم) العدد ٢٦٤ ـ الثلاثاء ١٠/١٠/١٣٨٢هـ عن (الورود اللبنانية).

(٢) مفئود: مصاب، أو محترق.

(٣) مصفود: مقيد مغلول.

(٤) هذا قول فاسد ولم تألفه بيئة الحجى، فلعله علق بلسانه مما قرأ وهو في لبنان حيث نظم هذه القصيدة.

إذَا ذَكَرْتُكُمْ أمْسَيْتُ مُرْتَعِشاً كَأنَّنِى فِي مَهَبِّ الرِّيحِ أمْلُودُ

أنَا المُتَيَّمُ وَالأحْدَاثُ شَاهِدَةٌ مِنَ الهُمُومِ عَلَتْ وَجْهِى التَّجاعِيدُ

إنِّى غُلامٌ وَلَكِنْ حَالَتِى عَجَبٌ أرَى كَأنِّى مِنْ سَبْعِينَ مَوْلُودُ

لَمْ أشْرَبِ الكَأسَ وَالأشْوَاقُ تَشْرَبُنِي وَلَمْ أغَرِّدْ وَمِنْ حَوْلِى الأغَارِيدُ

نَعَمْ شَرِبْتُ كُئُوسَ الهَمِّ مُتْرَعَةً حَتَّى كَأنِّى مِنَ الأوْصَابِ عِرْبيدُ

كَأنَّنِى شَبَحٌ فِي اللَّيْلِ مُنْتَصِبٌ أرْعَى النُّجُومَ وَحُلْمُ اللَّيْلِ مَوْءودُ

الغِيدُ حَوْلِى زَرَافَاتٍ أطَالِعُهَا لَكِنَّمَا عَنْكُمُ لَمْ تُسْلِنِى الغِيدُ

لَمَّا أتَى العِيدُ أبْكَانِي وَهَيَّجَنِي فَلَيْتَنِي بَعْدَكُمْ مَا مَرَّبِى عِيدُ

ذَكَرْتُكُمْ وَسَخِينُ الدَّمْعِ مُنْهَمِرٌ لَمَّا تَعَالَتْ بِدُنْيَاىَ الزَّغَارِيدُ

عِيدُ الغَرِيبِ سَقَامٌ وَانبِعَاثُ أسىً وَدَمْعُهُ إنْ شَدَا الشَّادُونَ تَغْرِيدُ

كلمة أخيرة

إن أهم مايمتاز به شعر الحجي (بَعْدَ الأصالةِ، إشراق الديباجة وجلاء الصورة الأدبية المشرقة في اللفظ والأسلوب) هي تلك الملاء الداكنة من الشك والتشاؤم والشكوى من الحياة والناس، وهو في ذلك ليس كمثل أولئك المتبائسين اللذين قال فيهم الدكتور طه حسين (فقد أذكر أن قد كان البِدْع في أيام صباي تكلف البؤس، وانتحال سوء الحال، والافتنان في شكوى الناس والزمان. كان ذلك بِدْعاً في العقد الأول من هذا القرن وكان حافظ يذيع هذا البِدْع و يروجه) [1].

أقول: إن الحديث عن البؤس والشقاء عند الحجي لم يكن تباؤساً بل تصويراً واقعياً منتزعاً من واقع حياة الحجي نفسه.

فلقد رافق البؤس، وصحب الشقاء زمناً طويلاً كان هو زهرة حياته فَحُفِرت صُوَرَة في حسه وشعوره حفراً فلم يستطع التخلص منها حينما بسمت له الحياة نوع ابتسام فضلّت تنمو في حسه وشعوره وخياله حتى تصورها واقعاً يعيشة فعلاً، ثم صار ذلك الواقع المستحيل حقيقة ضلّت تنمو حتى صارت مرضاً عضالاً [2] أعيا

(١) (حافظ وشوقي)للدكتور/ طه حسين ص٨٥.

(٢) عضالاً:ـ أي ملازم.

الطبيب وأحزن الحبيب وقتل شاعرية فذّة كان يمكن أن تقدم لنا شعراً هو مايفتقر إليه مجتمعنا الأدبي في زمان كثر فيه المتشاعرون والأدعياء اللذين تناثرت أوراق تسوّلهم في أسواق الأدب حتى ملئت أرفف المكتبات وهذه مسألة أخرىٰ ربما عدنا إليها في موقف آخر.

ومما تحسن الإشارة إليه هنا أن الشكوىٰ من الناس والحياة والبرم بذلك كله لم يكن بالجديد في حياتنا الأدبية والاجتماعية لكنه كان لدىٰ السابقين أكثر واقعية، أعني أنه لم يكن مفتعلاً كما هو عند كثيرين من المتأخرين من أهل هذا الزمان وأسلافهم الأدنين.

ومثال ذلك عند بعض الأقدمين ماورد في شعر (كلثوم بن عمر العتابى):(١)

لو رأتني بذى المَحَارةِ فَرْداً ... وذِراعُ ابنة الفَلاَه وسَادِى(٢)

أُطْفِىء الحزنَ بالدموع إذا ما ... حُمَةُ الشوقِ أثّرت في فؤُادي(٣)

خاشع الطرف قد توَّشَحني الضرّ ... فلانَتْ له قَنَاةُ قِيَادِي(٤)

تِرْب بُؤْس أخا هموم كأن الـ ... حُزْنَ والبؤسَ وَافياً مِيلاَدِي(٥)

(١) كلثوم بن عمر العتابى ص١٢٣ للمؤلف.
(٢) ذي المحارة: اسم مكان في الجزيرة بالعراق فيه مجمع مياه، ابنة الفلاة: الناقة.
(٣) حمة الشوق: حرارة الشوق.
(٤) توشحنى: تقلدني وهو الأصل الشد من العاتق إلى الكشح.
(٥) ترب: الترب من ولد معك وهو الصديق والخليل.

وكأني استشعرت مالفظ النا ... س من النائِرَاتِ والأحقادِ[1]

أتصدَّى الرّدَى وأدَّرِع الليـ ... ـل بهَوْجَاء فوقها أقتَادِي[2]

حَظٌّ عيني من الكرىٰ خفقاتٌ ... بين سَرْجِي ومُنْحَنَي أعْوَادِي[3]

أوحَشَ الناسُ جانبيَّ فآ ... نَسُ إلاّ بوحدتي وانفرادي

قد رددت الذي به أتقىٰ النا ... س وأبرزتُ للزمان سَوَادِي[4]

ومنه:

لفظتني البلادُ، وانطوت ... الأكفاءُ، وملَّني جِيراني[5]

وَالْتَقتْ حَلْقةٌ علىّ مِن ... الدَّهرِ فاجَتْ بكَلْكَلٍ وجِرانِ[6]

نازعتني أحداثُها مُنية النفس ... وهدّت خطوبُها أركاني

خاشعٌ للهموم معترفٌ أتقلب ... كئيبٌ لنائبات الزمانِ[7]

---

(١) نائرات: النائرات الأضغان، يقال نئر ـ كمنع، بمعني ثارت ثائرته من الأضغان ونحوها.

(٢) الرّدَى:ــ المهالك وأدَّرِع الليل:ــ سار في ظلام الليل.
وهوجاء: الطويلة السريعة القوية. اقتادى: يقصد رحله.

(٣) سرجى: رحلى.

(٤) أي رفضت الذي يبعدني عن الناس، سوادى: أي حالتي الكئيبة.

(٥) اكفاء المرىء: أمثاله.

(٦) كلكل: صدر الجمل. والجران: الرقبة، وفيه مجاز مرسل.

(٧) كلثوم بن عمر العتابى ص ١٣٦ للمؤلف.

والمتأمل في شعر الحجي يحس فيه هذه الروح النافرة من الناس استياء من موقفهم منها وتوجساً لسوء مايصنعون، تحس ذلك في شعر الحجي و بخاصة قصيدته (من أعماق نفسى) غير أن التأثر لايظهر في صورة تومىء إلى أن الحجي قد تأثر بالعتابي ولكنه — فيما يبدو — من باب توارد الخواطر والله أعلم، وأمثلة هذا اللون من الشعر كثيرة عند الأقدمين و بخاصة أبا العلاء المعري ومن نحىٰ نحوه وهم كثر، أما من المتأخرين فلا تكاد تجد شاعراً لم يضرب فيه بسهم قد يصرح وقد يتخذ من تصوير بعض الشخصيات في المجتمع ميداناً لذلك على أنهم في جملتهم متبائسون، ولعل أول من يرد ذكره من البائسين فعلاً، عبدالحميد الديب وفهد العسكر.

والمهم هنا هو أن التشاؤم عند شاعرنا حمد الحجي لم يكن مفتعلاً وإنما هو وليد ظروف قاسية عاشها الشاعر فكونت نفسيته تكويناً شكياً تشاؤمياً انسكبت أصداؤه في شعره على ذلك النحو الذي تقرأه فيه والذي يقرأ ماكتبنا عن حياته لابد من أن يسلم لنا بما قلنا عنه شفاه الله.

وإذا كان لي من قول أختم به هذا البحث فحمد الله سبحانه وتعالى على مامنّ عليّ من قدرة على خدمة أمتنا من طريق خدمة فكر رجالها، ومنه هذا البحث الذي حاولت فيه جمع ما أمكن جمعه من شعر شاعر بلغ مبلغ الفحول في سن الشباب المبكر جداً و يقيني أني لو عثرت على ما وصلني خبره من شعره (لخرجت، ربما) بنتائج أجلّ مما خرجت به وإن كان فيما قدمته هنا خير والحمد لله.

ولقد شملت سيرته بحديث هو كل مايمكن قوله ثم قدمت دراسة حسنة لما عثرت عليه من شعره اجتهدت فيها، وحرصت على جلاء صورته من خلالها متجنباً الغلو والمبالغات، ومتحرياً الصدق والإنصاف، ويكفيني أني بذلك البحث قد وضعت في يد القارىء شيئاً عن هذا الشاعر وشعره كما كنت أول من بسط الحديث عنه وذلك في كتابي **(الأدب الحديث في نجد)** ثم هذبته ونظمته في هذا البحث المستقل المتواضع حجماً راجياً أن يكون نفعه أكبر وبخاصة أن كتاب **(الأدب الحديث في نجد)** قد نفد وليس في النية إعادة طبعه ثانية.

ثم إن إفراد الشاعر الحجي ببحث منفصل (ولو صغير) يجعل التعريف به أوسع ميداناً وأقرب إلى يد القارىء.

وإلى أن نحصل على ديوانه فإن هذا ما أمكنني تقديمه راجياً من المولى سبحانه أن يجعل عملنا كله خالصاً لوجهه، لأن في خدمة الأدب خدمة للغة العرب، لغة الكتاب والسنة وتراث سلف الأمة العربية والإسلامية.

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفهرس



مطابع الفرزدق التجارية - الرياض

المعذر ٤٨٢٤٩٨٣ / ٤٨٢٤٨٦٥